حضارة أجدادك العرب

- ٢ -

الفن والعمارة عند العرب

تأليف

محمد ابراهيم الصيحي

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٦٢/١٩٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

إن الموضــوع الذى نتناوله فى هــذه السلسلة من الكتب هو موضوع الساعة بلا ريب ، ففى الوقت الذى نحاول فيــه نحن العرب اللحاق بتيار الحضارة الغربية فى مختلف ميادينها ، وتبــوأ المــركز اللائق بنــا بــين شعوب العالم وأممه ، يجب أن نضع نصب أعيننا دائماً الحقيقة التاريخية الثابتــة التى يعترف بهــا كــل عالم منصف وهى أستاذيتنا ، نحن العرب ، للعالم كله ، وأن حضارتنا العــربية كانت بحق الأساس الثابت القــوى الذى بنى عليــه صرح الحضارة الغربية الحالية .

لهــذا حاولنا فى هــذه السلسلة التى نقدمها للقارىء العربى فى فخر واعتزاز — أن نبرز بوضوح دور العرب القيادى ، ونسلط الأضــواء على حضارتهــم الرائعــة فى شتى ميــادين العلم والمعــرفة .

وقــد تنــاولنا فى هــذه السلسلة مختلف جــوانب الموضوع وضمناها خمسة كتب هى « العلوم عند العرب » و « الفن والعمــارة » و « التجــارة والاقتصــاد » و « والحــكم والإدارة » و « أثر العــرب فى الحضارة الأوربية » .

وبذلك نقــدم للقــارىء صــورة متكاملة للموضوع الذى ينبغى أن يلم كل عــربى بجميع زواياه ووقائعه ، ولا نعتقد أننا عرضنا كل هذه الزوايا والدقائق ، فهذا يتطلب أبحاثاً ودراسات مستفيضة ، ولكننا قدمنا الخطوط الرئيســية والنقاط البــارزة ، وســوف يقف القــارىء فى هــذا الــكتاب على روعة الفن العــربى ويلم بألوان من هــذا الفن الأصيل الذى تلقفه الأوربيون عن العرب وقلدوه تقليداً يكاد يكون أعمى ، ثم نعرض لنماذج من براعة العــرب فى فن العمارة ســواء فى ذلك المساجــد أو القصــور أو المــدن ، تلك العمارة التى أذهلت أوربا كلها والتى لا تزال بعضهــا قائمــة حتى اليــوم تحكى للأجيال نبوغ العــرب وتنطق بروعة فنهم ...

« المؤلف »

القاهرة فى مارس ــ أزار ــ ١٩٧٤ .

مقدمــة

« شغل المسلمون فى عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين بنشر دين الله وبناء الدولة الاسلامية الجديدة ، فكان من الطبيعى أن تتسم حياتهم فى هذه الحقبة من التاريخ العربى بطابع البساطة ولكن بالتدريج ، وبعد استقرار العرب واختلاطهم بغيرهم من الأمم المجاورة أخذت فنون هذه الأمم تسترعى اهتمامهم ، وبدأوا ينقلون أساليبها ثم يطبعونها بطابعهم الخاص ، وظهر الفن العربى فى مختلف صوره واشكاله » .

يمكن أن نقسم الفنون إلى قسمين رئيسيين ، الفنون الجميلة وتشمل التصـوير والزخرفة والنحت والعمارة والموسيقى والتمثيل ، والفنـون الصناعيـة وهى التى تعتمد على الطرق الآليـة ولـكنها تخرج مشربه بروح الفن الجميلة مثل صناعة الخزف والزجاج والفسيفساء ، والنجارة والصياغة والتكفيت والمنسوجات المزخرفة .

وقـد كان للعرب دور بارز فى كـل هـذه الفنون ، ولكن هـذا الدور يتفاوت من فن لآخـر ، فلم يتحمس العـرب مثلا لفن النحت والتماثيل نظراً للنزعة الدينية القـوية التى كانت تسـيطر عليهم والتى كانت تمقت الوثنية والأصنام فنفروا منها ، ولكن ذلك لم يمنع من إقبالهـم على هـــذا الفن إبان الحـكم العبـاسى فى بغداد ، والحكم الأموى فى قرطبة ، وفى فترات أخرى من تاريخهم .

وما كاد العــرب يخرجون من جزيرتهم ويضربون فى الأرض فاتحين مجاهدين ، حتى بدأت صفحة جديدة فى حياتهم ، كان من بينهــا إهتمامهم بالفنون وتذوقهم لهــا ، فأخرجوا من الآثار الفنية ما يشهد لهــم بسلامة الذوق والإحساس المتأصل بالجمال ، فقــد ابتــكروا وصنعوا ما بهر العالم كله ، وأصبحت المدرسة العربية فى الفن المنهــل الرئيسى الذى نهلت منه أوربا قرونا عديدة ، والأساس الذى بنت عليــه كثيراً من فنونها .

والفن العــربى له شخصيته القائمة الواضحة المحددة المعالم والجوانب ، وله تاريخه ومميزاته رغــم تأثره فى أدواره الأولى بفنــون بعض الأمم المجاورة كالفــرس والروم ، ولــكنه ما لبث أن اتخذ لنفسه طابعاً عــربياً خالصاً وازدهر كفن عربى أصيل ، تميزه أى عــين خبيرة وفى هــذا يقول العالم الفرنسى جوستاف لوبون « يكفى أن يلقى الإنسان نظرةعلى إحــدى البنايات التى أقيمت فى دور راق من أدوار الحضارة العــربية مســجداً كان أو قصراً ، حتى يجزم أن هــذه البناية عربية ، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بأمة أخرى ، فالإبداع فى فن العرب واضح . بل لقــد ورثت الدول الأخــرى عن العــرب فنهم ، وهذا هو الفرق بين الفن المبتكر وغير المبتكر » .

ويتميز الفن العــربى إلى جانب ذلك كلــه بتنــوع الإنتاج والشكل والزخرفة ، فكان نادراً أن نجد تحفتين

متماثلتين تماماً ، رغم تباعد أرجاء الدولة الإسلامية الممتدة من حدود الصين شرقا حتى الأندلس غربا فقد امتازت المبانى العربية بطرز من الأعمدة والأقواس والعقود والقباب والزخارف البارزة ، وبتيجان بعض الأعمدة وكذلك بالزخرفة القائمة على الأشكال الهندسية كالمضلعات والدوائر والمثلثات أو كالزهور والنباتات والطيور والحيوانات •

كما برع العرب فى الزخرفة باستخدام الخط العربى وذلك بكتابة آيات من القرآن الكريم أو عبارات دينية أو أسماء الرسول والخلفاء أو أبيات من الشعر أو عبارات الترحيب ، كل ذلك بشكل متناسق جميل يجمع بين البراعة والذوق السليم •

وفى الصفحات التالية سوف نقوم بإلقاء نظرة سريعة على الفنون الصناعية التى اشتهر بها العرب ، ثم نعرض فن العمارة الإسلامى ، مساجده ومدنه وقصوره • ثم نختتم الكتاب بفصل عن الموسيقى والغناء عند العرب •

آلوان من :

فنون العرب الصناعية

« ترك العرب ثروة فنيه ثمينة تتمثل فى المنسوجات الملونه والزخرفة بأنواعها والستاير والبسط النادرة كما تعد صناعاتهم المعدنية والخزفية والزجاجية آيه فى الذوق الرفيع ، هذا عدا اسهامهم فى انتاج شتى المصنوعات التى تطلبها حياتهم الجديدة » ٠

عرف العرب صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية وبرعوا فيها ، وقد اشتهرت دمشق بوجه خاص بنوع من المنسوجات الحريرية عرف باسم « داماسك » نسبة إلى المدينة العربية « دمشق » ، كما عرفت الموصل بنوع آخر من القماش اشتهر باسمها « الموسلين » ، وفى نفس الوقت عرفت الكوفة بنوع من المنسوجات المشجرة المصنوعة من الحرير أطلق عليها اسم « الكوفية » ٠

كما كانت مصر من أكبر مراكز صناعة الأقمشة ، فإلى جانب ما كانت تنتجه مصانع دمياط وتنيس من الأقمشة الكتانية الملونة ، اشتهرت بصنع نوع آخر من الأقمشة الكتانية الثقيلة عرفت باسم « الديبقى » ، وقد بلغ من متانتها وثقل وزنها أنه كان يسمع لها من بعيد إذا انشقت صوت عال ، وبيع الثوب الواحد بأكثر من

مائة دينار ، كما صنعب نوعاً من الثياب أطلق عليه اسم « البـــدنة » وكان مقصوراً على الخلفـــاء وتبلغ قيمة الثـــوب أحياناً ألف دينار إذ كان يصنع من خيوط الذهب الخالص ، ولا يحوى من الغزل سدى ولا لحمة ســـوى نحو أوقيتين ، وكانت مصر تصدره بطبيعة الحال للعراق حيث مقر الخلافة ●

وفى فارس عرفت كازرون بشهرتها فى إنتاج الأقمشة الكتانية وذاع عنها اسم « دمياط الأعاجم » واشتهرت « كرمان » بصناعة الأقمشة القطنية ●

وقـــد تفنن العـــرب فى زخرفة الأقمشـــة وتزيينها برسومات متجانسة بل وذهب بعضهم إلى رسم خرائط جغرافية على الأقمشة كما فعل المعز لدين الله الفاطمى حين أمر ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب مبيناً عليها أقطار العالم بما فيها من أنهار وبحار وطرق هامة ، وقـــد جاءت آية فى الجمال كما ظهـــرت فيها مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة ●

وقـــد صنع العرب أيضا البسط والسجاجيد ، وغمرت المصانع العراقية والسورية والمصرية وكذلك الفارسية ، أسواق العالم بإنتاج ينم عن ذوق سليم يتميز بألوانه المتناسقة وزخرفته الرائعة ، كما أنتجت مدينة الفيوم الستائر المـــلونة الجذابة لتغطى النوافذ والأبواب فى القصور ، وقـــد بلغ طـــول بعضها نحو الثلاثين ذراعاً وكان يبـــاع بثلاثمائة دينـــار ●

وقد ساهمت المرأة فى هــذه النهضة الصناعية وسارت كما يقول آدم متز فى كتابه « عصر النهضة الإسلامية » جنباً إلى جنب مـع الرجل فشاركته فى صناعة النسيج فى مصر ، وكانت تقـوم بغزل الكتان وتترك للرجل مهمة نسجه ، وتتقاضى أجرها حسب إنتاجها ، مما ساعد على وفرة هــذا الإنتاج .

أما فى ميــدان صناعة المعــادن الثمينة ، فقــد برع صناع بغــداد فى إنتــاج أنواع مختلفة من الــكؤوس المنقوش عليها أشكال طيــور فى أوضاع شتى وخاصــة العقبان التى كانت تنقش على جدران الكؤوس وبجانبها كلمة أو عبــارة قصيرة كتبت بحروف مجسمه بارزه ، وكانت هــذه الكؤوس تستخدم عادة فى قصور الخلفاء كما صنعت المصانع العــربية الأوســمة وبعض الأوانى الزجاجية المرصعة بالجواهر ، وصنع العــرب نقودهم بأيديهم لأول مرة بعــد أن كانوا يستخدمون عمــلات الروم الذهبيــة والفضية ، ذلك بعد أن أمر عبــد الملك ابن مروان عام ٦٢ هـ أن تسك نقــود إسلامية فصنعوا الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضــة والدانق من النحاس . وكان يكتب على أحد وجهيها اسم الخليفة ، وعلى الوجه الآخر عبارات مختلفة مثل « لا إله إلا الله » « محمد رسول الله » « اللــه أكبر » « الحمد للــه » وكانت تكتب بحروف جميلة واضحة .

وتميزت الصناعة الدقيقة عند العرب بفن التكفيت ، ويعنى إدخال خيط من الذهب أو الفضة فى المعدن المراد تكفيته ، ويكون هـذا الخيط بارزاً أو مسوى ، وأحياناً يتم تركيب زهـرة من الذهب أو الفضة على إنـاء من الفولاذ أو النحاس ، وقد يتكرر رسم هـذه الزهرة فى شكل متناسق يحده خطان متوازيان يشبهان الإطار .

وقد تجلت روح الإبداع العربية فى ترصيع الأسلحة أو الآنيـة المكفته بالفضـة والموهة بالميناء . وكذلك فى صياغة البللور ، مما يتعـذر الوصول إلى مثله اليـوم لمـا يتطلب من جهـد ودقة وصبر بالغ .

وقـد عرف العرب الصناعات المعدنية الثقيلة بعـد أن اكتشفوا كثـيراً من المعادن فى أرضهم وإستغلوها ، ومنها منـاجم الفضـة والرصـاص والنحاس والحديد والنفط والمـرمر فى شمال فارس وخراسان والأندلس ، والحديد فى الشام قـرب بيروت ، والذهب فى الأندلس قـرب نهر تاجه ، هـذا عدا « الرخام بأنواعه الأبيض والأحمـر والمجزع والخمرى » والخزف . وقـد بادر العـرب إلى استغلال هـذه الثروات الطبيعية وصنعوا المناطق القريبة منهـا .

وخلف العـرب ثروة لا تزال بقاياها قائمة حتى الآن تنطق بمهارتهم فى الصناعات الخشبية المرصعة بالصدف أو العـاج ، فكانت منـابر المساجد وأبواب القصـور

فى أرجاء العالم الإسلامى ترصع عادة بأصداف تأخذ شكلا هندسيا رائعاً يحمل الطابع العربى الأصيل ، كما صنعوا المشربيات المخرمة فى المبانى والقصور « لتمنع رؤية الأجنبى لحريم الدار ، وفى نفس الوقت تسمح بالتهوية والإضاءة » ، ومن الخشب صنعوا صناديق جميلة مطعمه بالعاج كانت تخصص عادة لتقدم فيها الهدايا للملوك والكبراء ·

هذا إلى جانب نبوغهم فى فن الحفر على الخشب والجلد ·

فن العمارة الإسلامية

« لم يكن لدى العرب قبل الاسلام مبان ذات شأن ولكن بعد ظهور الاسـلام ، أصبحت لهم عمارتهم ذات الصبغة العربية والطابع الاسلامى الخاص ».

كانت أغلب المبـانى العـربية فى العصر الجاهلى من الطين أو الآجر وكان أقلها من الحجارة ، وكانت كلهـا — فى العـادة — ذات طابق واحـد ، وقـد حـرص العـرب — قـدر إمكانهم — على حفر بئر فى قلب بيت كل منهم يتزودون منـه بحاجتهم من المـاء .

ولمـا جـاء الإسلام ، أمر النبى بأن تكون مساجد المسلمين بسـيطة ، لا تعقيد فيهـا ولا تكلف ، وكان المسلمون يفـدون على منطقـة الحجـاز إبان الحـج فيشاهدون مسـاجد المـدينة ومكة ، وغيرهما من مدن الحجاز ويقلدونها بإنشاء مثيل يلها فى بلادهم .

ولكن ذلك لم يمنع من تطور المساجد وإدخال تعديلات وإضافات عليهـا مما سـنعرض له ، أما عن البيـوت والقصـور فقـد بـدأت تأخذ طابع الفخامة فأصبحت تبنى ، عادة ، بالحجر أو بمزيج من الـكلس والرمـل والصلصال والحصباء لا يلبث أن يصبح صلبا كالحجارة بعمل مئـات السنين ، بل لقـد عمـرت بعض الأبنية المشيدة بهـذا الخليط زهاء ألف عام .

ولم يتردد العرب فى الاستعانة أول الأمر بمهرة الصناع والبنائين من البلاد التى فتحوها وخاصة دولتى الفرس والروم ، وأخذوا عنهم بعض طرز عمارتهم ثم تحرروا من أغلبه ، وانتهوا إلى ابتكار طراز خاص بهم يتفق وطبيعة بلادهم •

وقد تميزت العمارات الإسلامية — إلى جانب المآذن — التى اختصت بها المساجد ، بالأقواس والقباب والأعمدة والمقرنصات •

أما المآذن فترجع أهميتها إلى اتخاذها آداة لدعوة المسلمين من فوقها إلى آداء شعائر الصلاة ، وتتفاوت أشكالها ، فبعضها مخروطى والآخر أسطوانى وأغلبها متوج بأنواع من الشرفات الصغيرة الدائرية الشكل المعروفة باسم الحواجز ليتنقل فيها المؤذن أثناء الآذان •

أما الأقواس التى يتميز بها فن العمارة العربى ، والتى نلاحظها فى كثير من المساجد والقصور ، فتتخذ أحياناً شكل حدوة الحصان أو الشكل نصف الدائرى ، بينما تعد القباب مميزة للمزارات أو الأبنية الملحقة بالمساجد والتى تضم ضريحاً لأحد الصالحين ، فحيث توجد قبة ، فهناك ضريح تعلوه • أما الأعمدة ذات الطابع العربى فيتوجها عادة تيجان وزخاف من الجص المجسم • بقيت المقرنصات أو المتدليات ، وتعد من

مميزات فن العمارة العربى الذى انفرد بها ، وهى ميزة غير معروفة فى عمارة الأمم الأخرى ، وقد عمت الوطن الإسلامى كله .

وإذا كان الخلفاء الأمويون قد تركوا العديد من المساجد والقصور الهامة ، فإن الخلفاء العباسيين قد خلفوا ثروة معمارية هائلة تتمثل فى مئات المساجد والقصور الضخمة التى تبارى الخلفاء وكبار رجال الدولة فى إقامتها .

أما فى الأندلس ، فقد أكثر العرب من تزيين مبانيهم بالنقوش العربية ، وأكثروا من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة على شكل أقرب إلى خلايا النحل وكان منظرها ساحراً عجيباً ، وأكثروا من استخدام الأقواس نصف الدائرية أو التى تأخذ شكل حدوة الحصان ، ويعد قصر الحمراء فى غرناطة مثلا بارزاً لروعة الفنون الإسلامية فى هذه البقعة من أوربا . ويسوقنا هذا إلى التوقف قليلا للكلام عن الزخرفة عند العرب .

فالواقع أن العرب كان لهم دائماً ذوقهم السليم فى هذا الفن الجديد عليهم ، فعرفوا استخدام الرسوم الهندسية فى النقش ، سواء اتخذت هذه الرسوم شكل نبات أو حيوان أو طائر ، وقد شاع

هذا اللون من النقش على الخشب أو المرمر أو المعادن أو الزجاج ، كما وجدت مجالا واسعاً لها على الجدران حيث تمتد إلى مسافات بعيدة تسمح بتكرار الرسم فى شكل زخرف جميل .

واستخدم العرب أيضا الخط كوسيلة للزخرفة والتزين ، وقد كان للخط الكو فى الصدارة فى هذا المضمار بسبب طبيعة رسمه الذى أهله ليكون أداة ممتازة فى الزخرفة ، فكان من الخصائص البارزة للفن الإسلامى ، وقد كثر استخدامه على الجدران والأقمشة واللوحات والأوانى على شكل شريط زخرف .

فكانوا يكتبون بهذا الخط آيات قرآنية كريمة أو عبارات « بسم الله الرحمن الرحيم » أو « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أو بيتاً من الشعر أو اسم الخليفة ، وإلى غير ذلك من الكلمات أو الجمل المناسبة .

ويعلق العالم الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » على ذلك بقوله : « لقد بلغ الخط العربى من الصلاحية للزينة ما جعل رجال الفن المسيحى فى القرون الوسطى فى عصر النهضة يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقاً من الكتابات الدينية الإسلامية ليزينوا بها المبانى المسيحية وخاصة الكنائس ، وفى إيطاليا الشىء الكثير من هذا القبيل » .

وإلى جانب ذلك عرف العرب الزخرفة بالجص بالنقش البارز أو تدوين عبارات به ، وقد كثر هذا اللون بشكل خاص فى الأقواس والأبواب وعدد كبير من المساجد والقصور .

ويسجل للعرب براعتهم فى استخدام الألوان استخداما يدل على سلامة الذوق ، فإن نقوشهم الزاهية البراقة التى لا تزال موجودة للآن على الجدران والأوانى الزجاجية والخزفية والمرمرية والفخارية والفسيفساء — تنطق ببراعتهم الفائقة فى هذا المضمار .

وكان للعرب ذوقهم الخاص فى صناعة الفسيفساء ، فكانوا يختارون لها الألوان المتناسبة ، ويعمدون إلى تزيين جدران القصور أو محاريب المساجد الكبيرة بقطع من الفسيفساء الملونة مع قطع من الزجاج التى تأخذ شكل مكعبات صغيرة أحياناً طول ضلعها نحو سنتيمتر واحد ، ويشمل بعضها على أكثر من لون مما يحدث تمازجاً بين الأضواء المنعكسة ، وكانوا يطلون بعض هذه المكعبات بطبقة ذهبية يدوم لمعانها زمنا طويلا بلغ بالنسبة لبعضها نحو الألف عام .

وإلى جانب ذلك كله صنع العرب المرايا . والمصابيح الزجاجية التى زينوا بها المساجد والقصور والأوانى الخزفية المطلية بالميناء ذات البريق ، وغير ذلك من

الصناعات التى قلدها الأوربيون ونقلوها مع ما نقلوا من تراث العلوم والفنون الإسلامية •

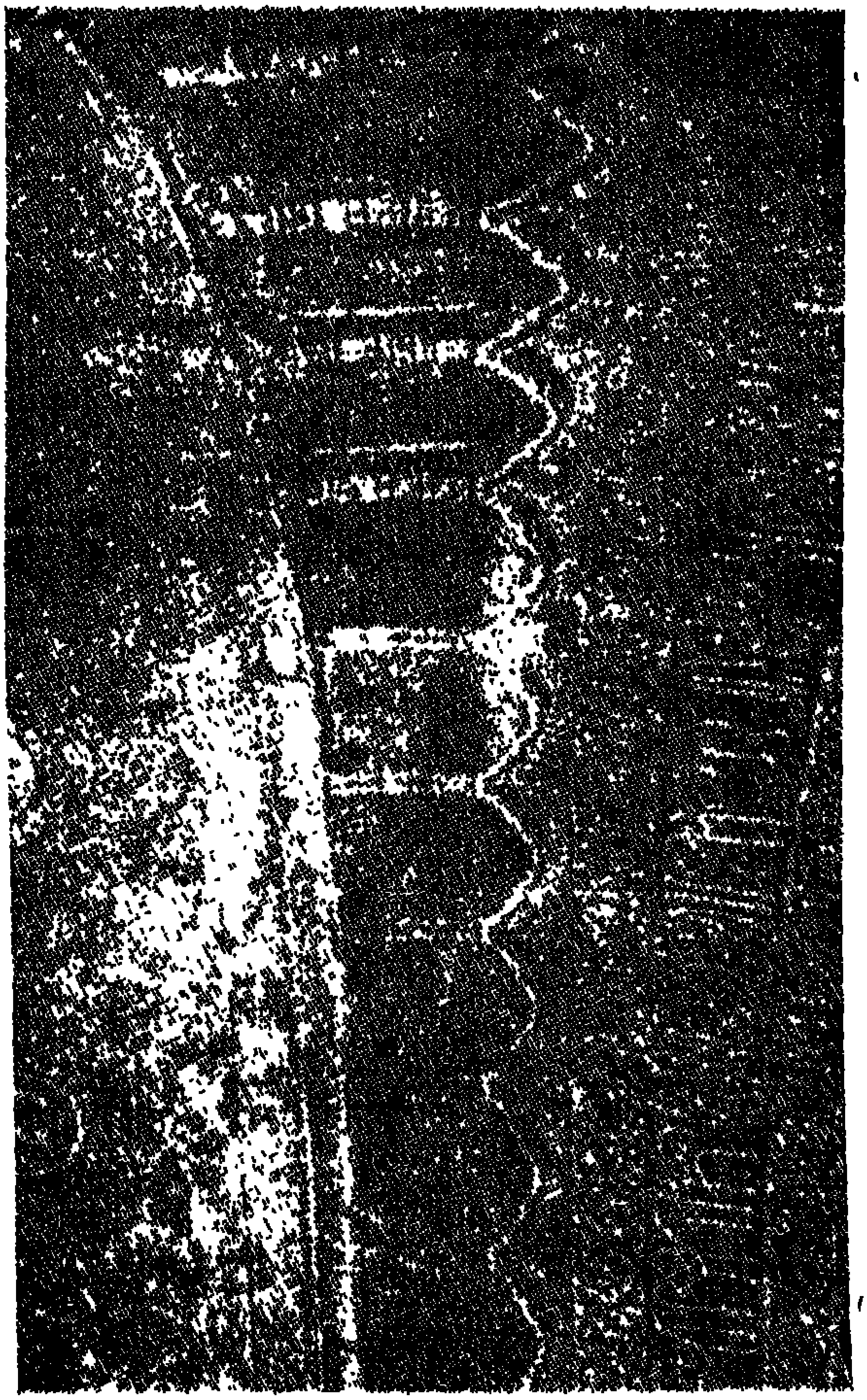

« آلاف من قطع الفسيفساء الجميلة الملونة تزين جدران أحد المساجد »
« يلاحظ استخدام الكلمات العربية فى زخرفة السقف فى شريط دائرى طويل مجسم »

ويلمس كل من ينعم النظر فى القباب الأربع التى بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد وهى باب خراسان وباب الشام وباب البصرة وباب الكوفة — عظمة فن الزخرفة فى عهده ، فقد بلغ قطر كل قبة خمسين ذراعا ، وزخرفت بالذهب ، وحليت بصور مجسمة ورسوم بديعة .

ورغم تحرج المسلمين عن النحت أو التصوير وعدم تحمسهم لممارسة هذين الفنين ، فإننا نلاحظ أن هذا الحرج بدأ يضعف بمرور الوقت نظراً لعدم وجود نص صريح فى القرآن يحرمهما أو يمنعهما . وقد روى المقريزى أنه عثر فى قصر الخليفة الفاطمى المستنصر حين نهب عام ٤٦٠ هـ (نحو ألف قطعة من المنسوجات المصورة ، وكانت البسط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير المخمل مزينة بتصاوير بعضها لآدميين وبعضها لحيوانات أو طيور) مما يدل على حذق مصورى العرب فى مصر فى هذه الفترة ، كما تكلم عن العثور (على صورتين لمغنيتين يكاد الناظر إليهما يجزم أنهما مجسمتان ، إذ تبدو الأولى وقد ارتدت ثوباً أبيضا رسمت على جدار أسود اللون فتبدو كأنها داخلة فى الجدار المصورة عليه ، بينما تبدو الثانية على العكس ، ترتدى ثوباً أحمر اللون على جدار أصفر وتبدو كأنها خارجة منه نحو الناظر) كما تكلم المقريزى عن رسم « سلم »

كان موجوداً فى أحد قصور القاهرة ، وقد جاء الرسم متقناً بحيث يبدو كما لو كان سلما حقيقياً .

وتحتوى كثير من المخطوطات العربية على صور شتى لأشخاص وطيور وحيوانات ، كما ذكرنا ، وظهر ذلك بوجه خاص فى الأندلس ويعد قصر الحمراء نموذجا ناطقا لهذا اللون من الفن ، فإن سقف إحدى قاعات هذا القصر . وهى قاعة الحكم ، تشمل وحدها على صور لموضوعات مختلفة تصور الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية السائدة إذ ذاك ، ومنها منظر لفارس عربى يطارد فارساً أوروبياً مطاردة المنتصر ، ومنظر آخر لمجلس أمراء من العرب ، هذا عدا عشرات المناظر المتناسقة التى تؤلف باقات فنية بديعة .

أما التماثيل فكان إنتاج العرب لها نادراً بوجه عام ، ولكن رغم نفور المسلمين من هذا الفن وعدم إقبالهم عليه ، فقد وجد فى بعض القصور العربية بعض التماثيل ، أما فى الأندلس ، فقد تم صنع تماثيل كثيرة ويعد قصر الحمراء بما حوى من تماثيل عديدة للأسود والعقبان خاصة فى قاعة الأسود ، تحفة فنية ، ما تزال حتى اليوم مقصد الزائرين من كل أنحاء العالم ، وموضع دراسة العلماء والفنيين وتحليل دقيق لخصائص الفن العربى فى المعاهد والكليات الفنية .

المساجد في الإسلام

كمظهر للعمارة الدينيــة

« العمــارة الاســلامية ، أما دينية وتتمثل فى المساجد وأما مدنية وتتمثل فى المدن والقصور ، وأما حربية تتمثل فى القلاع والحصون ، وسنعرض فى الصفحات التالية للونين الأول والثانى لتعــدد المظاهر الفنية المختلفة فيهما » .

للمسجد منزلتـــه العميقة فى نفـــوس المسلمين ، وقـــد احتل هــذه المــكانة الرفيعة منذ وجــد ، فقد كان إلى جانب اتخـــاذه مكاناً لتأدية شـــعائر الصـــلاة واجتماع المسلمين فيـــه خمس مرات كل يوم ، مركزاً لنشاط متعدد الجـــوانب ، دينى وثقـــافى واجتماعى وســـياسى ، ففى المساجد كانت تؤخذ البيعة للخلفاء وعلى منابرها كانت تلقى خطبهـــم الأولى التى تحـــدد منهـــاج كل منهم وطريقته فى تسيير دفـــة الحــكم وفى رحابه كان يجتمـــع الصحابة ، وتستقبل الوفود القادمة من الأقطار المجاورة ، وفيـــه كانت تعلن أنباء الحروب والانتصارات ، ويستنفر المجاهدون للقتـــال . هـــذا إلى جانب اتخاذ داراً للعلم ومـــكاناً للدرس ، وفيـــه يعقد القاضى جلسات محكمته فيقضى بين الناس . وكانت المساجد تظل مفتوحة الأبواب ليل نهار ، إلا فى أحوال قليلة . تستقبل الوافدين إليها من الغرباء الذين يأوون إلى بيت الله ، مما يخفف عنهم متاعب رحلتهم وأسفارهم .

فالمسجد إذن كان بمثابة مركز إشعاع دينى وعلمى واجتماعى قوى يعتبره كل مسلم بيت الله ، ومن هنا كان الخلفاء والحكام فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى يهتمون به ، فأدخلوا على نظام المسجد البسيط الذى أقامه الرسول الكريم ، الكثير من التعديلات والإضافات والتحسينات المتجددة الدائمة ليتفق المسجد ومكانته العميقة فى نفوس المسلمين .

لقد أراد النبى لمسجده أن يكون بسيطا لا تعقيد أو مغالاة فيه ، وقلد المسلمين أول الأمر هذا النظام ، ولكن بمرور الوقت بدأ الخلفاء مع مطلع عهد الأمويين يعدلون ويزيدون فى بنائه ، وكان معاوية أول من اتخذ لنفسه مقصورة فى المسجد الذى يصلى فيه بدمشق ، وكان ينتظر فيها حتى يحين موعد الصلاة خشية أن يتعرض لحادث اغتيال كما وقع لعمر فيعتدى عليه أحد خصومه السياسيين .

وظل هذا النظام سائداً ومعمولا به فى كثير من المساجد حتى الوقت الحاضر ، لأنه وجد هوى فى نفس الخلفاء من بعد معاوية ، سواء فى أسرته أو فى الأسرات الحاكمة الأخرى فى المشرق والمغرب على السواء .

ومن التطورات التى أدخلت على المآذن ، اتخاذها لأشكال هندسية أو معمارية مختلفة ، وتفنن المسلمون فى تزيين المحراب وهو الذى يحدد جهة القبلة وكان

هـذا التزيين يتمثل عـادة فى بعض الآيات القـرآنية الـكريمة أو بكلمات وأحاديث دينية أو أسماء الرسـول والخلفاء الراشدين هـذا إلى جانب طلائه بألوان شتى وزخرفته برسوم متناسقة. كانت تتفاوت من مسجد لآخر حسب أهميته وضخامته •

كما أضيفت الايوانات إلى كثير من المساجد •

وإلى جانب ذلك كله ، لم يبخل المسلمون على إضاءة المساجد ليلا بالقناديل الثمينة التى كانت تعلق فى سلاسل حـديدية ، وذلك منـذ الغـروب إلى ما بعـد صـلاة العشاء ، وقد تعالى الحاكم بأمر الله فى مصر فى إضاءة مسجده ، حتى يروى أنـه أمر بإنارته بتنور كبـير من الفضـة بلغ من ضخامته أن اضطر العمال إلى خلـع أبواب المسجد حتى يتسنى إدخال التنور فيـه ، ويقال بالقـاء نظرة سريعة على قصة بنـاء الكعبة •

وفى الصفحات الآتية سوف نعرض عدداً من المساجد المعروفة فى العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب ، وسنبدأ بـلقـاء نظرة سريعة على قصة بنـاء الكعبة •

قصـة بنـاء الـكعبة الشريفة :

كان إبراهيم عليـه السلام ينزل فى مشـارف الشام فضاقت زوجتـه سـاره بجاريته هاجـر التى ولدت له إسماعيل ، وكان إبراهيم باراً بزوجته فقبـل، أن يقصى الولد وأمـه عنها ، وارتحل بهما إلى تلك البقعـة التى

اختارها الـــه لمنزل إسماعيل وديعته فى ظـــل دوحة فى بطن هـــذا الوادى فى مكة على قيـــد خطوات من ربوة جرداء ارتفعت عليهـــا قواعد البيت الحرام فيما بعد ٠

وعاد إبراهيم بعـــد أن ذكـــر لهاجر أنه يتركها هى وابنها فى رعاية اللـــه ٠

وشعر الطفل بظمأ شـــديد ، فأخـــذت أمه تسير بين جبلين قريبين هما الصفا والمروة سبع مرات تبحث عن مـــاء دون جدوى ، فخرج لهـــا جبريل عليه الســـلام فسارت خلفـــه حتى ضرب الأرض برجله فظهر المـــاء غزيراً فـــوق الأرض وكان هـــو ماء زمزم ؛ وكان ذلك إيذانا بمولد مكة كمدينـــة عامرة ، إذ وفـــدت قبيلة من جرهم عائـــدة من الشام أدهشها أن تجد المـــاء يتفجر فى هـــذا المـــكان كان قفراً مجدباً فأستأذنت هاجر فى النزول والإقامة فأذنت لأفـــرادها الذين بعثـــوا إلى أهليهم ٠

وترعرع الغلام وتزوج جارية لهـــذه القبيلة ، وكانت أمه قـــد ماتت فاشتغل بالصيد وأقبل إبراهيم من الشام ذات يوم على ابنه فقال له : « إن اللـــه أمرنى أن أبنى له بيتاً » ثـــم قاما يحفران لإقامـــة القـــواعد ، وحمل إسماعيل الحجارة وشرع الشيخ فى البناء فلما ارتفـــع البناء وشـــق على الشيخ تناوله ، قرب إسماعيل حجراً

يقوم عليـه أبوه ويبنى حوله نواصى البيت حتى انتهى فسمى الحجر مقام إبراهيم لقيامه عليه •

وهكذا أنشأ إسماعيل مـكة ، ورفـع أبوه بمعونته قواعد البيت •

ومرت عـدة قرون ، وولد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكانت أحجار الكعبة قد أخذت تتصدع فارتاعت قريش وحاولت فى أمرها ثم عزمت على تجديد بنـائها وشارك النبى وهو شاب فى نقـل حجارتها مع بنى هاشم وبقية القبائل التى اختصمت فيما بينها عنـدما جاء دور الحجر الأسود ، ولكن محمد أرضـاهم جميعاً بحكمته وتم إعادة بنـاء الكعبة على ارتفاع ١٨ ذراعاً ورفعـوا بابها وجعلوا لها سقفاً ثم أصبحت مزارا لكافة المسلمين فى الحج وأصبحت تضم المسجد الحرام •

ونعـود بعـد ذلك إلى المساجد الإسلامية الهامة •

المسجد النبوى الشريف « المدينة المنورة » :

كان من الطبيعى ، بعد هجرة النبى صلى الله عليـه وسلم إلى المدينـة أن يبنى بهـا مسجدا تقـام فيـه شعائر الصلاة ، ويتخذه مركزاً يجتمع فيـه بالمسلمين ، يدير منـه أمور دينهم ودنياهم • وقـد ساهم الرسول الـكريم بنفسه فى بناء هـذا المسجد ، الذى تميز بطابع البساطة التامة وهو ما يتمشى مع بساطة الدين الجديد الذى حمـل رسالته ، فلا زينـة فيـه ولا نقـوش ولا مغـالاة •

وقـــد بنى المسجد من اللبن ، واتخذ سقفه من جريد النخيل وأقام أعمدته من جزوعه وقـــد شيد هذا المسجد على قطعة أرض يملكها طفلان يتيمان صـــغيران ، عرض الوصى عليهما وهو أسعد بن زراره أن يهبها دون مقابل لهـــذا الغرض النبيل ، ولـــكن النبى رفض فى إصرار ، ونقده الثمن المناسب .

وكان للمسجد بابان ، يطلق على أحـــدهما اسم باب عائشة والآخر باب مليكة ، أما قبلته فـــكانت تتجه نحو بيت المقـــدس ، ثم تم تحويلها بعد ذلك شطر الـــكعبة لمـــا أصدر اللـــه أمره بذلك للمسلمين .

وأخـــذ المسجد يتسع وتزداد مساحة رقعته عاماً بعد عام بتزايد المسلمـــين . وقـــد بـــدأت هـــذه الزيادات فى عهـــد الرسول حـــين أمر بضم مساحة أخـــرى من الأرض إليـــه لمواجهة زيادة عـــدد المصلين بعـــد كثرة دخول الناس فى الإسلام وإقبالهـــم على أداء الشعائر فى المسجد . وتعـــددت هـــذه الزيادات فى عهـــد عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان بعـــد أن لمسا عدم تناسب مساحة المسجد /مع كثرة القاصدين لزيارة قبر الرسول من مختلف أنحاء العـــالم الإسلامى ، فأمر عمر بإضافة دار كانت للعباس بن عبـــد المطلب إلى المسجد وكانت تجاوره ، فهدمت وتم توسيع المسجد بهـــا ، أما عثمان فأدخل عليـــه بعض التحسينيات والتجديدات ليجمـــه

مجعل أعمدته من الحجارة بدلا من جزوع النخيل وسقفه من الساج بـدلا من الجريد •

لكن يعـد التجديد الذى أدخله عمر بن عبد العزيز فى عهـد الوليد ابن عبد الملك من أكبر وأهم التجديدات التى أدخلت على هـذا المسجـد فى صـدر الإسلام ، وكان عمر يشغل منصب والى المدينة ، فضم إلى المسجد حجرات زوجات النبى فزادت مساحته ، أما الوليد فقد أمر بالاستعانه بخبراء وعمال من الدولة البيزنطية بلغ عـددهم الثمانين حضروا بموافقة إمبراطور الروم الذى لبى رغبـة الوليد فى هـذا الشأن ، وقـد أنفق الخليفة الأموى على هـذا المسجد عن سـعة ، ولم يضن على تجـديد وتجميل مسجـد النبى بمال أو جهـد ، فزين جـدرانه بالفسيفساء والأحجار الثمينة ، ودعم أعمدته بالحديد • وظل الحكام يجملون هـذا المسجد فى فترات مختلفة ومتباعدة وما زالت التجديدات والتحسينات قائمة فيـه حتى الآن •

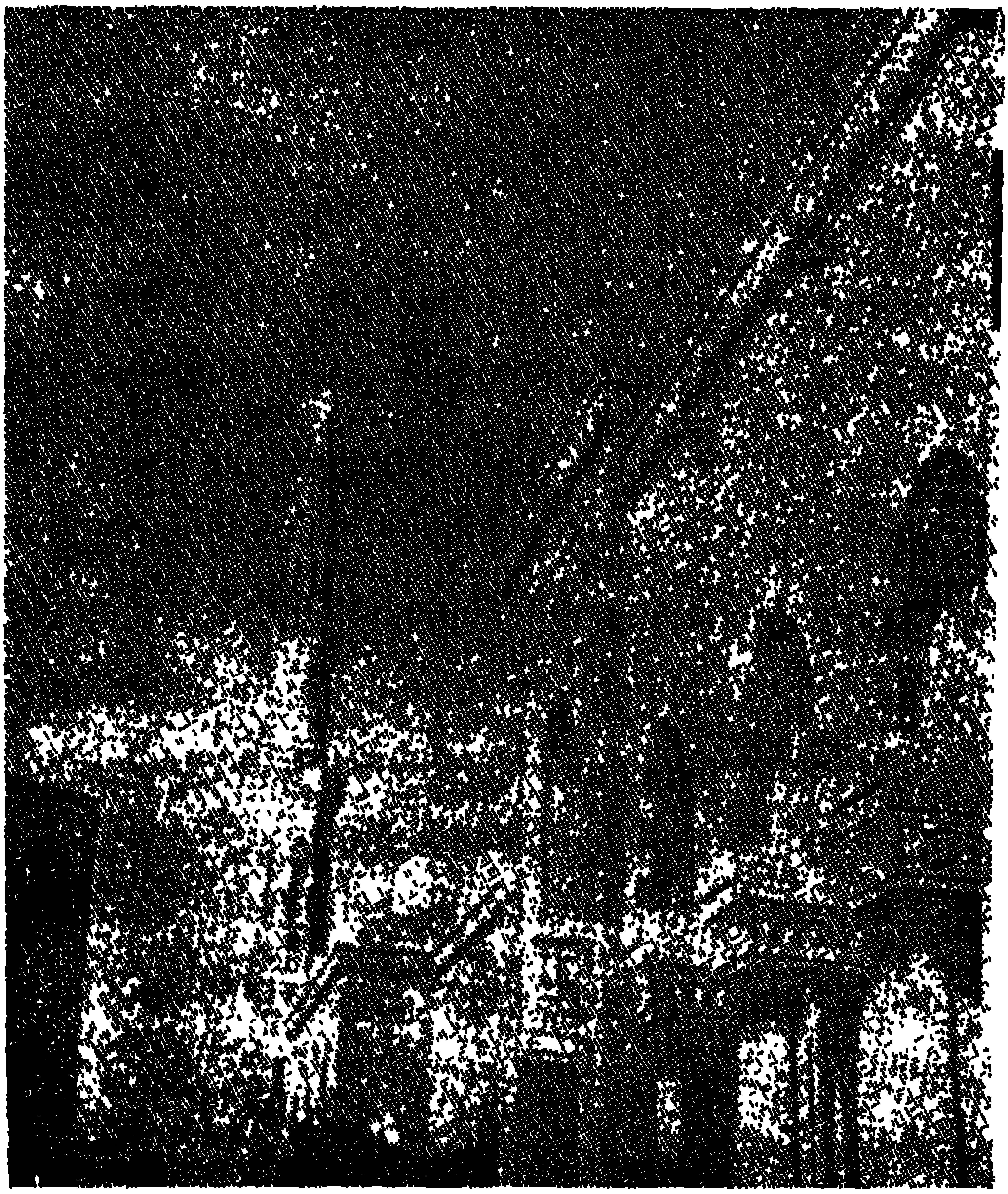

« واجهـة المسـجد النبوى فى المـدينة المنورة من الخارج ،
كما تظهـر اليوم »

مسجد عمرو بن العاص « الفسطاط » :

ويعتبر أقدم مسجد فى مصر ، ويعـرف أيضاً باسم المسجـد العتيق وكان المسجـد الجامـع الوحيـد فى الفسطاط ، ولا يزال قائماً حتى الآن فى حى مصر القديمة بالقاهرة • وقـد أسسه عمرو بن العـاص عام ٢١ هـ بعـد أن فتح مصر ، واتخذ قطعة من الأرض فى مدينة الفسطاط العاصـمة الجديدة لمصر الإسلامية ، ــ كانت هـذه الأرض تقـع شمالى حصن بابليون ويملكها قتيبة بن كلثـوم التجيبى ، وقـد تبرع بهـا ايبنى فوقهـا عمرو مسجداً للمسلمين •

وكان المسجد صغيراً فى بادىء الأمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك أمر واليـه فى مصر « قـره بن شريك » بتوسيع هـذا المسجد ، وبنى له محرابه لأول مرة وقد اتخذ رسم هـذا المسجـد كنمـوذج للمساجد فى مصر زمناً طويلا ، فكانت كلها تبنى على غراره •

جامع عمر « القـدس » :

وينسب هـذا المسجد إلى عمر بن الخطاب ، رغم أن عمر لم ينشىء هـذا المسجد بل لاختياره المـكان الذى يقام فيه فقط • ويعد من أقـدم المساجد فى الإسلام ، ويقـوم فى مدينـة القـدس ، ويشغل مساحة واسـعة تحتط بها سور ، وقد فرغ من بنائه عام ٧٢ هـ (٦٩١م)•

« منظر خارجى تظهر فيه قبة جامع عمر فى القدس ، وهى »
« القبــة التى تعــلو الصخرة المعلقة »

وللمسجد أربعـــة أبواب يقابل كل باب منهـــا إحدى انجهات الأربع . وهو مكسو بالرخام فى القسم الأسفل من جـــدرانه ، ومطعم بالميناء والفسيفساء والرســـوم المتعددة الألوان بأشكالها الهندسية الرائعـــة ، وهو فوق ذلك مزين بالصحائف البرونزية المطرقة ، كما أن نوافذه مزينـــة بآلاف القطع الزجاجية الملونة ، وللمسجد منبر رخامى جميل الصنع تعلوه قبـــة صغيرة .

أما القبة الـــكبيرة نفسها التى تتـــوج الجامع كله . فتحوى الصخرة المشرفة التى يتميز بهـــا هذا المسجد ، وهى الصخرة التى هم إبراهيم بذبح إبنـــه إسماعيـــل عليها إمتثالا لأمر اللـــه تعالى ، ويبلغ طول هذه الصخرة سبعة عشر متراً وارتفاعها مترين يحيط بهـــا سياج من حـــديد ترتكز عليـــه .

ويعتبر هـــذا المسجد ، ثالث الحرمين الشريفين ـــ بعد الحرم المكى فى مكة والحرم المدنى فى المدينة ـــ ويتميز بهـــذه القبة التى تأخـــذ شكلا دائريا ترتكز على أربـــع ركائز ضخمة ، وقـــد صـــمم انسقف والأعمـــدة بحيث يستطيع الناظر أن يرى جميع أقســـام المسجد من أية نقطة بداخله .

المسجد الأموى « دمشـــق » :

ويعـــرف أيضا باسم مسجد دمشق . بدأ بناء هـــذا المسجد أبو عبيدة ابن الجراح ، ولكن واصل البناء وأتمه

الوليد بن عبد الملك واستغرقت الفترة التى تم بناء هذا المسجد خلالها ثمانى سنوات (بين عامى ٨٨ هـ ، ٩٦ هـ) •

وقد أنفق الوليد على بناء هذا المسجد وتجميله ببذخ بالغ ، حتى يقال أن السجلات التى تضمنت نفقات البناء نقلت إلى مقر الوليد على ١٨ بعيراً ليدرسها ويقرها ، ولكن الخليفة الأموى لم يشأ بحثها فأقرها دون مراجعة وقال « هو شيء أخرجناه لله ، ولا نرجو من ورائه شيئاً » • وقد أسرف الوليد فى الانفاق على هذا المسجد ، وتأنق فى بنائه وتزيينه وتجميله حتى ليقال أنه خصص لذلك خراج دولته لمدة سبع سنوات مما جعل الناس يوجهون إليه النقد ويتهمونه بالتبذير والإسراف ، وإنفاق أموال المسلمين فى كماليات لا تعود عليهم بفائدة ، ورماه بعضهم بقصر النظر ، وترامى إليه هذا الاتهام ، فخطب فيهم فى المسجد عارضاً وجهة نظره ومدافعاً عنها ومذاكراً إياهم أنه جعل من مسجدهم هذا إحدى عجائب الدنيا •

والواقع أن الوليد قد تفنن فى تجميل وتزيين هذا المسجد ، ودفعه ولعه الشخصى بفن العمارة إلى الإنفاق بلا حساب على مسجده ، فزين محرابه بالجواهر الثمينة ، وجعل سلاسل قناديله من الذهب والفضة وغطى جدرانه بالفسيفساء ، وكتب على باب المسجد

باللازورد على رقائق مذهبه هـذه العبارات « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إلـه إلا اللـه ، هو الحى القيوم ، لا إلـه إلا اللـه وحده لا شريك له ، لا نعبد إلا إياه ، ربنـا اللـه واحـد ، وديننا الإسـلام ونبينا محمـد صلى اللـه عليـه وسلم ••• أمر ببناء هـذا المسجد عبـد اللـه الوليـد أمـير المؤمنـين فى ذى الحجـة سـنة ٨٨ هـ) •

ولمـا جاء عمر بن عبد العزيز راعه إسراف الوليد فى الإنفاق على هـذا المسجد ، مما أثر على بيت المـال ، فأمر بنزع السلاسل الذهبيـة وقطـع الفسيفساء من المسـجد للانتفاع بثمنها فيما يهـم المسلمين ، ولـكنه عـدل عن قراره بعـد أن سمع عن غيظ بعثة من سفراء الروم كانت قـد قـدمت لزيارة دمشق ، وطلبت زيارة هـذا المسجد فلمـا زارته أذهلها ما شاهدت من عظمته وفخامته وقال رجالهـا : « أن العـرب إذا كانوا قـد توصلوا إلى كـل هـذا الفن ، فلا شك أنهـم معمرون طويلا فى الأرض » •

مسجد قرطبـة « الأندلس » :

يعـد جامع قرطبة من أهم وأشهر المبانى العربية فى الأندلس • وقـد بدأ عبد الرحمن الأول بإنشاء هـذا المسجد (١٦٨ هـ) وأتم ابنه هشام بناءه (١٧٧ هـ) • ومن بعده تعهـده الأمراء والحكام بالتجميل والزيادة

حتى أصبح من أجمل المساجد فى العـالم الإسلامى •
وقـد بنى هـذا المسجـد فى الفترة التى كـان الفن الإسلامى فيهـا فى أوج مجـده • وكانت الـدولة فى الأندلس على جانب كبـير من الرخاء ، فاجتمع المـال والفن مع الرغبة فى خلق آية من آيات الفن الإسلامى فـكان هـذا المسجد الذى فاق بعظمته وروعته معـابد الشرق كافه •

وكان المسجـد يحوى ١٩ صحناً واسعا ، ٣٨ صحناً ضيقاً ، وكان لـه فى واجهتـه الجنوبية وحـدها وهى المقابلة للوادى الـكبير ١١ بابا ، وكانت قبتـه البديعة تستند إلى أعمدة رائعة من مختلف أنواع الرخام أخذت شكل رقعـة الشطرنج بلغ عددها ١٠٩٣ عمـوداً كانت تؤلف فى مجموعهـا غابة بديعة من الرخام والجرانيت ويعلو تلك الأعمـدة وتصل بينها أقواس رائعـة منضدة مصنوعة على شكل حـدوة حصان • أما بواكى المسجد الضخمة فقـد بلغت بعـد إتمام بنـائه ١٦ من الشرق للغرب ، ٣١ من الشمال للجنوب ، وقد تفنن المعماريون فى طلاء أبواب المسجد البالغ عـددها ٢١ بابا بالنحاس الأصفر ذى البريق •

أما مبنى هـذا المسجـد فقـد صـنع من العـاج والخشب النفيس ، وقـد بلغت عـدد القطع الصغيرة التى تم تركيبها ليتكون منهـا منبر هـذا المسجد أكثر من ٣٦٫٠٠٠ وصله عاجيـه وخشبية دقيقة وقـد كان للمسـجد محـراب رائـع زين بالفسيفساء وعقـد فى

آطرافه إطارات من الذهب والإبريز واللازورد •

وكانت الثريات تتناثر فى أرجاء المسجد لإضاءته ليلا . وقــد استخدام فى هــذه الإضاءة مئات الثريات تزينها شموع ضخمة كان يبلغ زنة الواحدة منها نحو الأربعين رطلا ، كما زود هذا المسجد بتنور من النحاس الأصفر يحمل وحــده ألف مصباح •

وقــد قــدر ما أنفــق على هــذا المسجد فى عهــد عبد الرحمن الأول وحــده بأكثر من ٠٠٠ر٨٠ دينارا ، كمــا تبارى إبنــه هشام ومن جاء بعــده فى تحسينه وتجميله •

وقــد كان هناك جهاز بشرى ضخم مهمته السهر على راحة المصلين وصيانة المسجد وملاحظة نظافته ، وتوفير المــاء والإضاءة وإحراق البخور من العنبر والعــود ، وقــوام هذا الجهاز ثلاثمائة موظف انقطعوا لخدمته •

وقــد نال ما تبقى من هــذا المسجد من آثار إعجاب ودهشة المستشرقين والعلماء الأوربيين ، وأعلنوا أسفهم البالغ على ما آل إليــه هذا المسجد فى عهــد الأسبان بعــد خــروج المسلمين • وفى هــذا يقــول العــالم الفرنسى جوستاف لوبون : « لقــد عمــد الأسبان إلى تخريب هــذا المسجد فنزعوا الفسيفساء من جدرانه ، وكلسوا — أى غطوا بالجبس — الزخارف الرائعة التى زين بهــا ، وطمسوا الكتابات المنقوشة عليــه وباعوا

تحف السقف بعد أن نزعوها وعبثوا بهـا ، ولم يفلت من التخريب سوى محراب هـذا المسجد الذى لا نرى أحسن من زخرفته وسنائه فى أى أثر قـديم أو حديث مماثل ، وهو من أجمل ما تقـع عليـه عين بشر » .

الجامع الأزهر « القاهرة » :

إذا كانت القـاهرة تتميز بطابعهـا الشرقى وبهـذا العـدد الكبير من المساجد المنتشرة فى أرجائها ، بمآذنها البديعة الممتدة فى سمائها ، فإن الجامع الأزهر بلا ريب يأتى فى قمـة هـذه المساجد . فهو أهمها وأكبرها على الإطلاق ، وهو أحد الآثار الهامة التى خلفها الفاطميون فى القـاهرة عاصمتهم الجـديدة ، إذ ما كاد جـوهر الصقلى قائـد المعـز لدين اللـه الفاطمى يفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ حتى وضـع مـع أساس مدينة القاهرة ، أساس الجامع الأزهر فى ١٤ رمضان ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) . وقـد استغرقت عملية بناء هذا الجامع عامين كاملين .

وكانت مقصـورة المسجد التى بناها رائعـة يحيطها ويتخللها ٧٦ عمـوداً رخاميـا أبيض اللون فى صفـوف منتظمة ، وبجوار المقصورة التى خصصت للصلاة ، ترك مكان آخر متسع غـير مسقوف رصف بالحجر يسـمى صحنا يودى الناس فيه الصلاة عنـد ازدحام المسجد بالمصلين أيام الجمع والأعيـاد .

وقـــد أخـــذت مساحة هـــذا المسجد تتسع وتزداد مقصوراته وأعمدته حتى بلغت ٣٧٥ عمـــوداً لمقصورتين والمبـــانى الملحقة بالجامع ، وأما المحراب القديم ويعرف الآن باسم القبلة القـــديمة ، فقـــد بنيت ثمانى محاريب غيره بقيت منها ستة الآن ، كما ارتفـــع عـــدد المنارات إلى خمس كان ينطلق منهـــا الآذان فى وقت واحـــد ، فتتلقف مساجد القاهرة النـــداء وتردده بدورها .

وكان المنبر مصـــنوعاً من الخشب المخروطى الجميل الصنـــع . وزينت جـــدران المسجد بآيات كريمة كتبت بالخط الكوفى الجميل على طـــول كثـــير من حوائطه . وقـــد أدخل عليـــه كثـــير من الحـــكام زيادات كثيرة ، وأنشأوا المساكن لطلاب العلم الذين يتلقون العلم فيه ، بصفته أكبر جامعة إسلامية فى العالم يقصدها الطلاب من كل مكان ، فيقـــدم للغـــرباء منهـــم المسكن والمأكل والتعليم دون مقابل .

المدن والقصور العربية كنماذج رائعة للعمارة المدنية

« بنى العرب كثيرا من المدن الهامة التى لا زالت قائمة حتى اليوم ، وعمروا مدنا أخرى ورفعوها كلها الى مصاف العواصم العالمية ، وتناثرت المدن العربية فى الوطن الاسلامى شرقا وغربا تزينها القصور الضخمة ، فكانت أمثله ناطقه لتقدم العمارة المدنية عند العرب ، وسنبدأ بالقاء نظرة سريعة على المدن الهامة » .

كتب ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع العربى فى مقدمته المشهورة عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى المدينة عند بنائها فقال تحت عنوان « باب ما يجب مراعاته فى أوضاع المدن » : (يجب عند اختيار موضع مدينة مراعاة طيب هوائها ، فإن الهواء إذا كان راكدا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو المناقع المتعفنة أو المروج الخبيثة أسرع إليه العفن ، فأسرع المرض للإنسان والحيوان معاً ، وتفشت الحميات ، كما أن قرب المدينة من الزرع يمكن الناس من الحصول على الأقوات ، وقربها من البحر يساعدهم على الحصول على حاجاتهم من البلاد النائية ، كما يجب أن تحاط المدينة بالأسوار . وأن تبنى إما على هضبة مرتفعة أو باستواء بحر أو نهر بها حتى لا يصل العدو إليها ، إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة) .

وهذه الشروط التى أوردها ابن خلدون رغم أنها وردت متأخرة إلا أن العرب قد حرصوا فعلا على تحقيق أغلبها أو بعضها فى كل مدينة قاموا ببنائها .

وقد عمل العرب على تزويد كل مدينة بحاجتها من المرافق العامة فبنوا بها المساجد ، وأقاموا الميادين الرحبة وشقوا الطرق المعبدة وأنشأوا المنتزهات ونظموا الأسواق وأكثروا من الحمامات العامة .

ويحسن أن نقف قليلا عند هذه الحمامات التى أكثر العرب من إنشائها فى مدنهم حتى يقال أنها بلغت فى بغداد وحدها إبان العصر العباسى الأول أكثر من خمسة آلاف حمام ، كانت فى جملتها تقام على نمط واحد ، وتشتمل على متكأ كبير فى ردهته ينال المستحم فيه قسطا من الراحة ويخلع ثيابه وينتعل نعلا من خشب ، ثم يلتف بمنشفة ، ويدلف إلى غرفة الحمام وبها حوض من الماء تبلغ حرارته نحو الخمسين درجة ، فيستلقى على الرخام ، ويدلك عامل خاص جسمه جيداً لتنظيفه ، ثم يسمح له بالخروج إلى ردهة أخرى فيستريح قليلا ويرتدى ملابسه ويغادر الحمام .

ولا شك إن حرص العرب على إنشاء الحمامات بهذا الشكل وعلى هذا النطاق الواسع ، دليل على اهتمام العرب كشعب بالنظافة وحرصهم عليها .

وقـــد عالج العـــرب فى قصـــورهم وبيوتهم مشكلة ازدياد فترة الحر فى فصل الصيف وتغلبوا عليها بطريقة غاية فى البساطة ، تهـــدف إلى تـــكييف الهـــواء بالمعنى المعـــروف اليـــوم ، ذلك إنهـــم كانوا يثبتون قطعاً من الخيش المبلل بالمـــاء بحذاء فتحات الأبواب والنوافذ ، فإذا اندفع الهواء الحار إلى الداخل تأثر برطوبة المـــاء وأصبح بارداً منعشاً ، كما لجأ البعض إلى تثبيت مروحة كبـــيرة فى سقف الحجرة يتدلى منهـــا حبل ، ثـــم ترش المروحة بالماء المخلوط برائحة طيبة كماء الورد فإذا أراد الجالسون هواء رطبا زكيا ، فما عليهم إلا أن يجذبوا الحبل فتتحرك المروحة دافعـــة الهـــواء البـــارد المعطر نحـــوهم .

وتغلب العرب على ظاهرة تراكم ميـــاه الأمطار ، عند اشتداده ، فوق أسطح بيوتهم ، فأدخلوا نظام الأسطح المسنمة أى المحدبة على غرار البيوت الأوربية الحالية ، ونجحوا بذلك فى التغلب على هـــذه المشكلة .

المدن العربية

وفيما يلى نستعرض عددا من المدن العربية ·
الهـامة التى أنشاها العرب » ·

البصرة

فى عهـد عمر بن الخطـاب وفى عـام ١٦ هـ ، اختط عتبة بن غزوان مدينة جـديدة تنزل فيهـا القبـائل العربية التى نزحت إلى العراق ، واختار المكان الحالى الذى تقع فيـه مدينـة البصرة ، وقـد راعى عتبـة عنـد اختيـار هـذا الموقع توافر الهواء النقى والكلأ الوفير والمراعى الغنية وامتداد الفضاء الرحيب ، وقـد أقر الخليفـة عمر هـذا المكان بعد أن علم أن هـذا الموقع لا يحول بينـه وبين المسلمين بحر أو عائق يعرقل إمداد المدينـة الجديدة وسكانها المسلمين بالجنـد إذا لزم الأمر ·

وقـد بدأ عتبـه بإنشاء المسجد ودار الإمارة ، ثم ترك لكل قبيلة حرية بنـاء خطة لهـا فأقبلت القبـائل على بنـاء دورها من الغاب ثم بالآجر والحجارة بعـد ذلك ، وقـد تعـددت الخطط والمسـاجد فى المدينـة

واستفحل العمران بهـا واتسع • كمـا تعددت المصانع والحوانيت بمرور الوقت بهـذه المدينـة •

وقـد تبوأت البصرة المركز الأول فى التجارة فى هـذه المنطقة بسرعة فربطت الهنـد والصين بالعراق ، وربطت العراق بالمغرب ، وقصدتهـا القوافـل القـادمة من كل صوب ، وحطت فيهـا السفن رحالهـا وأثقالها وحملت منهـا المتـاجر والبضـائع ، حتى أصبحت فى العصر العباسى الأول من أهم المراكز التجارية فى الدولة كلهـا ولقبت (بباب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتهـا المتدفق ، بضروب المتـاع والسـلع من أطراف الدنيـا) وأطلق عليهـا اسم قبـة السلام ، وأصبحت واسـطة العرب والعجم •

الكوفة

ما كادت القبائل العربيـــة النازحة من قلب الجزيرة العربية تستقر فى البصرة وتمضى فيهـــا بعض الوقت ، حتى تبينت فى جـــو هـــذه المدينـــة الوليـــدة تشـــبعا بالرطوبة لوقوعهـــا على نهـــر دجلة ولكثرة المستنقعات المجاورة للمدينة ، فضايقتهم هـــذه الرطوبة ، لتعودهم على حيـــاة البـــادية بهوائهـــا الجاف ، فرغب بعضهم فى البحث عن مكان آخـــر يتخذونه بديلا عن البصرة ، ويكون بعيدا عن المستنقعات والهواء المشبع بالرطوبة ، فأخـــذ سعد بن أبى وقاص يبحث مع رجاله عن موقع مناسب ويتفق مع رغبتهم ، وكان أن وقع اختيارهم على مكان قرب الحيرة غربى نهر الفرات ، وبدأ العمل فى بناء مدينـــة جـــديدة قـــدر لهـــا أن تولد فى نفس الوقت الذى كانت فيـــه شقيقتها البصرة تستكمل ملامحهـــا ، فقـــد بدأت القبـــائل العربيـــة تضع أساس المدينـــة الجـــديدة عام ١٧ هـ وبنى الجنود خططا لهم على غرار تلك التى بنيت أو التى كانت لا تزال تبنى فى البصرة — أى من الغـــاب فى أول الأمر ، وقـــد وقع حادث لهذه الخطط تسبب فى تدميرها عن آخرها بسبب إلتهام النيران لهـــا ، فعـــاد الجنـــد يبنون خططهم من جـــديد ولكن

باللبن والآجـــر ، وفى قلب المدينـــة تمـــاما كان مسجد الكوفة ودار إمارتها يرتفعان حتى يكونا مقصدا ســـهلا لكل فرد من السكان •

وقـــد أعجب على بن أبى طالب بهذه المدينة ، وآنس من أهلهـــا ميـــلا إليـــه ، فاتخذ منهـــا مقرا لخلافتـــه وعاصمة لحكمه ، وأصبحت بانتقـــاله إليهـــا ، حاضرة للدولة الاسلامية فى عهـــده •

وتمـــيزت الـــكوفة بطيب هوائها واتســـاع طرقاتها وخصوبة أرضهـــا وكثرة خيراتها وسهولة مواصـــلاتها بالعـــالم الخـــارجى •

الفسطاط

الفسطاط كلمة مشتقة من لفظ Fossatum اللاتيني ومعناه المدينة العسكرية أو « المعسكر المحيط بخندق » لحمايته من المغيرين ، وقد احتفظ العرب بهذا الإسم حين فكروا في اتخاذ مدينة لهم تصبح عاصمة لمصر بعد أن فتحها عمرو بن العاص . ولاختيار هذا المكان قصة ، فقد كانت الاسكندرية هي العاصمة القديمة لمصر في عهد الدولة البيزنطية قبل الفتح العربي ، ولما كانت هذه المدينة الساحلية بعيدة عن قلب الدولة وكانت مهددة في نفس الوقت بإغارات أسطول البيزنطيين عليها ، فقد رأى عمرو أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب أولا قبل اتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية ، فأوفد إليه رسولا يتلمس الرأي عنده ، فسأله الخليفة عمر : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فرفض عمر اتخاذ الاسكندرية عاصمة للدولة ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، والي مصر وقائد الجيش العربي بها يقول :

« إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء أو صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، فمتى أردت أن أركب راحلتي إليكم ، حتى أقدم عليكم ، قدمت » .

واقتنع عمرو بوجهة نظر الخليفة ، وأخذ يفكر فى اختيار مكان آخر يصلح لإنشاء عاصمة ينطبق عليها شرط الخليفة ، وهداه البحث إلى اختيار مكان مناسب يقع عند رأس الدلتا قرب حصن بابليون ، ويشغل المنطقة الواقعة بين النيل وجبل المقطم تحفها الأشجار والنخيل والكروم من الشمال والشرق •

وللمرة الثانية أرسل يستأذن عمر ، فأذن له •

وبدأت كل فئة من فئات الجيش تبنى خطة لها فى المدينة ، وعرف كل قسم منها باسم قائد أو قبيلة ومن الأسماء العربية للقبائل التى أسهمت فى عملية بناء الفسطاط قبائل بنى تميم وبنى عقبه وبنى وائل وغيرها • ووضع أساس جامع عمرو ٢١ هـ وكان أول مسجد يقام فى مصر ، ونمت المدينة بسرعة واتسعت رقعتها وكان لسهولة الاتصال بينها وبين الجزيرة العربية من ناحية ثم لوقوعها بين الوجهين البحرى والقبلى ، أثره فى ازدهار العاصمة الجديدة خاصة بعد أن عمل عمرو على تجديد وتعميق المجرى المائى الذى كان يربط نهر النيل بالبحر الأحمر عند السويس (القلزم) وأطلق عليه إسم خليج أمير المؤمنين ، مما ساعد على توثيق الصلة وتيسير المواصلات بين مصر والحجاز ، كما كان عاملا هاما من عوامل تنشيط التجارة بينهما • وظلت الفسطاط عاصمة لمصر ، حتى تم بناء مدينة العسكر ١٣٢ هـ ، فحلت محلها •

دِمَشق

لم تكن دمشق من المدن التى بناها العرب ، فدمشق مدينة عريقه فى القدم كانت مقرا للحاكم البيزنطى إبان الفترة التى خضعت فيها الشـــام للدولة البيزنطية فلما تمكن المسلمون من فتح الشام ، عهد إلى معاوية ابن أبى سفيان بحكمهـــا ، فلمـــا ولى معـــاوية أمر الشـــام ، اتخـــذ من دمشق عاصمة للولاية العربية الاســـلامية الجديدة ثم أصبحت حاضرة الدولة الأموية بعد ذلك ، نظرا للفترة الطويلة التى أمضاها معاوية فى حكم الشام ، فأحب أهلها وأحبوه ، وأصبحوا له بمثابة عصبية يعـــتز بها ، فآثر أن ينقل عاصمة الدولة الاســـلامية كلهـــا فى عهد الأمويين إلى دمشق .

وارتفعت دمشق فى سنوات معـــدودة إلى مصـــاف العواصم العالميـــة ، وتضاعف فيهـــا العمران ، وسرعان ما ظهرت فيها القصور الضخمة والمبـــانى الجميلة وكانت قصورها ذات أبهـــاء عديدة تجملها الأعمدة الرخامية : تكسى نوافـــذها بالستور وتفرش قاعاتهـــا بالطنافس وتحـــلى بالثريات . ويتوسط كل قصر كبير نافورة : وكان الطراز العربى يغلب على طابع البنـــاء والزخرفة والأثاث .

كما تعددت المساجد والحمامات والحوانيت فى المدينة،

أما بيوت العـامة فقـد بقيت على طرازها القـديم ولكن كان يلحق بأغلبهـا حدائق صغيرة تزرع فيهـا الزهور وأشجار البرتقال والليمون ، ويمتـد إلى داخل كل دار جدول من المـاء الجارى إذ أن الأمويين عملوا على توفير المـاء لكل بيت فى دمشق ، فشقوا عدداً من الروافد لنقـل المـاء إليهـا •

وقد أولى الوليد عاصمتـه مزيدا من عنايتـه ، وأنفق على تعمـيرها وعلى بنـاء مسـجدها الشهير المعروف باسم « المسجد الأموى » ، أموالا طائلة كمـا أسلفنا وأسرف فى التعمير والتجميل مما عرضه للنقد واللوم •

وكانت دمشق تتميز بأسوارها المنيعـة ذات الأبراج العالية ، ولهـا سـتة أبواب هى الباب الشرقى وباب توما وباب الجابية والبـاب الصغـير وباب الفراديس والبـاب المسـدود ، كمـا تميزت دمشق بأسواقهـا المغطاة فى شارع طويل تمـتد على جانبيـه الحوانيت التى تبيع مختلف السلع ، وتخلق حركة اقتصادية دائبة وهو المعروف اليوم بسوق الحمـيدية •

القَيْرَوَان

كان عقبة بن نافع واليا على برقة ٤٨ هـ من قبل الدولة الأموية ، وكان تواقا إلى مد نفوذ المسلمين نحو المغرب ، فطلب من معاوية بن أبى سفيان أن يعينه على تحقيق هذه الرغبة ، وأن يبعث إليه بجيش قوى يساعده على أداء هذه المهمة ، فرحب معاوية بتلبية طلبه .

ولم يكتف عقبه بالعدد الذى بعث به إليه معاوية ، بل عمل على مضاعفته ، فجمع أعدادا من مسلمى شمال إفريقيا الذين أبدوا رغبة صادقة فى معاونته ، وانضموا إليه متحمسين ، وبدأ الجيش — بعنصريه العربى ، القادم من الشام والبربرى الذى اعتنق الإسلام والذى تجمع من أكثر من جهة فى شمال إفريقيا — زحفة نحو الغرب والتحم المسلمون الذين كانوا يشتعلون حماسة ، بسكان هذه المنطقة من البربر وأحرز المسلمون انتصارات سريعة متلاحقة بعد حرب عنيفة بين الطرفين .

ورأى عقبه أن يتخذ قاعدة للحكم الإسلامى فى هذه الجهة ، وبعد بحث دقيق وقع اختياره على منطقة بعيدة عن الساحل وبنى مدينة القيروان التى ما زالت قائمة حتى الآن ، وكان عقبة حين رفض فكرة

ببناء المدينة على الساحل ، يرمى إلى تجنيب عاصمته الجديدة خطر الأسطول البيزنطى وهجماته عليها .

وكانت المدينة تضم عددا من الخطط لكل قبيلة خطة تعرف باسمها ، سواء أكانت قبيلة عربية أو بربرية؛ فكانت هناك خطة قحطان وخطة ربيعة وخطة مضر ، وخطة الخراسانيين وخطة البربر وغير ذلك ، وقد بنى محمد بن الأشعث الخزاعى العباسى فيما بعد سورا من اللبن يضمها كلها ، وقد هدم السور وأعيد بناؤه بالحجارة عام ٤٤٤ هـ .

وكان يتوسط المدينة مسجد أنشأه عقبة اشتهر بمئذنته الكبيرة المربعة وكانت عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع . وقد أضيفت للمسجد فى عهد هشام بن عبد الملك بعض الأجزاء المجاورة حتى يتسع لعدد أكبر من المصلين ، وقد أدخلت عليه عدة تجديدات بعد ذلك أهمها ما حدث فى عهد الأغالبة حين بنيت القبه المعروفة بقبة البهو البديعة الشكل .

وقد أخذت القيروان تنمو وتتسع مظاهر الحياه العمرانية فيها فاتخذها عبد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب حاضرة لدولته حتى عام ٣٠٣ هـ حين اتخذت « المهدية » — وتنسب إليه — الواقعة على ساحل البحر مباشرة ، عاصمة له ، وقد بناها خصيصا لهذا الغرض وتقع جنوبى القيروان بنحو ستين ميلا فظلت العاصمة حتى انتقال الفاطميين لمصر .

قرطبة

وتقع على الضفـــة اليمنى لنهـر الوادى الكبير فى أسبانيا ، اتخذها عبد الرحمن الناصر (الأول) عاصمة لإمارته بعـد أن وطـد نفوذه فى بلاد الأندلس ، وبنى « بهـا مسجد قرطبـة الجامع » الذى أشرنا إليـه ، كما بنى بهـا قصر الحكم •

وسرعان ما ازدهرت المدينـة ، واتسع العمران بهـا حتى بلغ عدد سكانها فى منتصف القرن الرابع الهجرى نصف مليون نسمة ، كما بلغ عـدد الدور بهـا أكثر من ١٣٫٠٠٠ داراً ، عـدا القصور الفخمة التى جملتهـا وأشهرها قصر الزهراء ، وسنعرض له فيما بعد ، هـذا إلى جانب الحمامات الجميلة التى بلغ عـددها أكثر من ثلاثمـائة حمـام •

وكان يحيط بهـا ويتخللهـا عـدد كبير من البساتين المثمرة ، التى جلبت إليهـا أنواع النبـاتات والأشجار النـادرة من شتى أنحاء العالم •• وكانت بعض القصور تخصص جانبا كبيرا من مساحتها لزراعة هـذه الأشجار المثمرة ، ونبـاتات الزينـة مما يضفى عليهـا جمالا ، ومنهـا قصـور الروضـة والزاهر والرشيق والسرور والتاج والبديع والرصافة والمعشوق وغيرها من القصور

التى كانت تجمل المدينة وتضفى عليها من روعتها وفنها الشىء الكثير .

وقد أسهم « هشام بن عبد الرحمن » فى تجديد المدينة وتنظيمها وتجميلها ، فجمل قصر قرطبة القديم ، واتخذه مقرا لإمارته ، ومدها بقنوات من الرصاص من الجبال القريبة ، وأنشأ الصهاريج الضخمة والبرك البديعة وأحواض الرخام المزينة بتماثيل مختلفة الأشكال مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس مما أكسبها جمالا فريدا ، وعمرت المدينة بالسكان حتى أصبح عددهم نحو مليون مواطن .

وقد أشاد الشعراء بعظمة المدينة ، وأطلقوا عليها اسم جوهرة العالم . كما اشتهرت بجامعاتها التى كان يفد إليها الطلاب من أنحاء أوربا وكان من أساتذة هذه الجامعات الفيلسوف ابن رشد والطبيب بن زهر والأديب ابن زيدون والفقيه ابن حزم وعشرات غيرهم .

بغداد

« بغـداد » كلمة فارسية معناها بالعربية « هبـه من اللـه » وكانت تطلق بلد ساسانى قديم يقال له بغداد ، يقع على شاطىء نهر دجلة الغربى ، فلمـا وقع اختيار الخليفـة العباسى المنصور عام ١٤٥ ه على هـذا الموقع ليكون مكانا يبنى فيـه عاصمة دولتـه الجـديدة ، آثر الاحتفـاظ بهـذا الاسم .

وتتميز بغـداد بقربهـا من فارس معقـل أنصـار العباسيين وموطنهم ، لهـذا رغب المنصور فى أن يكون قريبـا منهم ، كمـا عرفت هـذه المنطقة — إلى جانب ذلك — بطيب هوائهـا ووفرة خيراتها وجودة زراعتها ، وجريان ماء نهـرها ، وسهولة مواصلاتهـا مع المشرق والمغرب ، ومع الشمال والجنوب على السواء .

وفى هـذا يروى عن المنصور قوله عندما اختار هـذا المكان : « ستكون هـذه العـاصمة الجـديدة مشرعة للدنيـا ، كل ما يأتى فى دجـلة من واسـط والبصرة والأهواز وفارس وعمـان واليمامه والبحرين وما يتصل بهـا ، فإليها يرد ، كذلك كل ما يأتى من الموصل وأرمينيا وما تحمله السفن فى دجلة وما يأتى من دبار مصر والرقة والشام والمغرب ، يحط فيهـا وينزل ... فالحمد للـه الذى إدخرها لى ، وأغفل عنهـا كل من تقدمنى ... ،

واللـه لأبنيها ثم أسكنها أيام حيـاتى ، ويسكنها ولدى من بعـدى ، ثم لتكونن أعمر مدينـة فى الأرض •

وبدأ المنصور العمل ، فاستعان بنحو مائة ألف مهندس وعامل من الممتازين فى مختلف فروع العمارة من بنـاء ونجارة وحـدادة وزخرفة •

ولم يشأ الخليفة العباسى أن يأمرهم بالبناء عـوراً كما يفعل غيره ، بل عمد إلى فكرة عجيبة ونفذها ، ذلك أنه أمرهم بتخطيط المدينـة بالرماد ، بيـوتها وطرقاتها وميادينها ، وبعد أن دخلها من الأبواب المخططة بالرماد على الأرض ، وتجول فى طرقاتها ، أمر العمال بوضـع كميـات من القش على خطـوط الرماد المرسـومة على الأرض ، ثم صب النفط عليها ، ووقف بعيداً على مكان مرتفع يحيط به رجاله ومهندسـوه أعطى إشارة أضرمت على أثرها النيران فى القش المبلـل بالنفـط ، وسرعان ما اشتعلت النـيران لتجسم مدينـة من اللهب تتصاعد ألسنته الحمراء وتتراقص ، وكان منظراً فـريداً لمدينة من نار ، وأخـذ المنصور يجيل النظر فى تخطيطها ثانية ويرقب نظامها ، فلما أعجبه أمر بحفر الأساس •

وقـد جعلها المنصـور دائرية الشكل ، واتخذ داره وجامعه فى قلب الدائرة تمـاماً ، وبنى بجوارهما داراً للحرس ودوراً للدواوين الحـكومية • هـذا إلى جانب المنازل التى بنيت لأولاده وكبار رجال الدولة من أمراء

وموظفين ، ثم يلى ذلك دور الأهالى التى أخـذت كلها طابعاً واحـداً يغلب عليـه البساطة تتخللها أسـواق المدينة •

وبنى سـوراً للمدينة عرضه من أسفل خمسين دراعاً ومن أعلى عشرين ذراعاً ثـم تبعه بسـور آخر خارجى زيادة فى الحيطة ، ولإكساب المدينة منعة ضد أى اعتداء أو هجوم خارجى يتهددها ، وقـد بلغ ارتفـاع هـذا السور الخارجى ثلاثين ذراعاً وكان عرضـه هـو نفس عرض السور الداخلى ، وقـد زود بعدد من الأبراج •

وقـد تخلل هـذا السور الخارجى أبواب أربع هى : باب الكوفة ، باب البصرة ، باب الشام ، باب خرسان •

وسرعان ما ازدهرت المدينة الجديدة وعمرت بسكانها المتزايدين الذين بلغوا فى عهـد الرشـيد نحو مليونى نسمة ، اشتغل عـدد كبير منهم بالتجارة التى انتعشت بسبب ما كان يرد إليها من بضائع من مختلف أنحـاء العالم ، فأصبحت بغداد مدينه تجارية من الطراز الأول بين مدن العالم أجمع • ففى أسواقها كانت تتوافر أنواع الحرير والخزف والمسك والورق من الصـين ، والطيب والأصباغ والمعادن من جزر الهنـد الشرقية والعـاج والعبيد من إفريقيا ، والمنسوجات والفـراء الثمين من روسيا فكانت المدينة تستهلك من البضائع ما تحتاج إليه وتصدر الباقى للدول الأخرى •

وكانت الأسواق دائما تموج بالحركة والنشاط ، وقد

أفرد لكل حرفة سـوق خاص ، فهناك سـوق للصناع والتجار وآخر للحدادين وثالث للنجارين وكـذلك الحال بالنسبة للبزازين والعطارين والقصاصـين والرياحـين وغـيرهم •

ولم تال الدولة جهـدا فى توفير أسباب الراحة لهـم فبلغ مقـدار ما أنفق على بناء المدينة نحو ثمانى عشر مليونا من الدينارات أى « ما يقـرب من تسـعة ملايين جنيه مصرى » أنفق جانب كبير منهـا على قصر الذهب الذى بلغت مساحته ١٦٠٫٠٠٠ ذراعا ، وسنـعرض له بالحديث فيما بعـد ، وقـد أنشىء قصر الخلد أيضـاً لكى يخلد إليـه الخليفة إذا رغب فى الهدوء والعزلة ، وكان يقـع فى أطراف المدينـة • هـذا عـدا مئـات الحمامات التى انتشرت فى أنحاء المدينة •

وكان هناك جهاز بشرى ضخم مهمته تنظيف المدينة • كـل يوم وحمل القـاذورات من الطـرقات إلى خارج المدينـة •

فكانت بغـداد بحق أضخم مدن العالم ، تعـد مركز إشعـاع علمى وثقـافى وفنى امتـد إلى كافة جنبات العالم الإسلامى دون استثناء • وظلت لؤلؤة متألقة حتى داهمها « هولاكو » عام ٦٥٦ فى غزواته البربرية فدخلها ودمرها ، وأحرقها فى وحشية ليقضى على كـل معالم الحضـارة — بل والحياة — فى المدينـة الجميلة المسالمة •

القاهرة

فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ ، وفى مكان يقع شمال الفسطاط وعلى بعد ثلاثين مترا شرقى مجرى خليج أمير المؤمنين ، أخذت المعاول تحفر الأرض لتضع أساس مدينة جديدة أطلق عليها اسم « القاهرة » لتكون عاصمة لدولة الفاطميين .

وكان « جوهر الصقلى » قائد المعز لدين الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين فى مصر ، قد زحف من شمال إفريقيا نحو مصر قاصدا فتحها ، حتى تكون مركزا لدعوة الفاطميين تنطلق منها نحو الشرق لتحقيق أطماع توسعيه أكثر من ذلك . فلما تحقق لجوهر غرضه ، ودخل الفسطاط والعسكر ، لم يشأ اتخاذ إحدى هاتين المدينتين لتكون عاصمة لدولته ، فكان أن بدأ فى تأسيس « القاهرة » لتكون حاضرة للفاطميين ومركزا لنشر دعوتهم الشعبية وعلومهم الدينية ، وقد اختار باختيار هذا الموقع مكاناً حصيناً يصلح لصد هجمات القرامطة الذين كان يهددون حدود مصر الشمالية الشرقية إد ذاك .

وكان جوهر يريد إطلاق اسم « المنصورية » على هذه المدينة الوليدة ، وذلك نسبة إلى المنصور والد المعز لدين الله ولكن المعز هو الذى اختار لها هذا الإسم ،

وظلت القاهرة تحمل اسمها وتعتز به زهاء ألف عام ، وما تزال تتسع وتتضخم وتزدهر يوما بعد يوم .

وكما هى العادة المتبعة فى ذلك الوقت فى بناء المدن ، أخذت كل قبيلة من القبائل البربرية القادمة من شمال إفريقيا مع جيش جوهر تختط لنفسها خطة عرفت كل منها باسم القبيلة التى ستقطنها .

وكانت مساحة المنطقة التى اختارها جوهر محدودة أول الأمر ، أخذت شكل مربع لا تزيد مساحته عن ٣٤٠ فدانا يتوسطها قصر الخليفة المعز المسمى بالقصر المعزى أو القصر الكبير ، وقد بلغت مساحة هذا القصر وحده سبعين فدانا وكان مخصصا لسكن الخليفة المعز وحاشيته ، وإلى غربه أنشأ الخليفة العزيز القصر الغربى .

وإلى جانب ذلك كله كان بستان الكافورى الملحق بالقصر الكبير يشغل وحده ٣٥ فدانا ويزرع بشتى أنواع الفاكهة والأشجار المثمرة المزهرة ، ثم يتناثر عدد كبير من القصور الفخمة للأمراء ودور الدواوين الحكومية ، وخزائن السلاح والجند وثكنات عسكرية وعدد من المساجد الهامة على رأسها الجامع الأزهر الذى أشرنا إليه ثم عدد من المساجد منها مسجد الحاكم والأقمر والصالح ، وكان العمران ينمو ويتسع يوما بعد يوم فتعددت الدور والمبانى كل منها يخدم غرضا عاما ويؤدى خدمة للشعب ، فبنوا دار الضيافه

وداراً للوزارة وداراً لسك النقود وخزانة للكتب وداراً للعلم كانت تضم آلاف المجلدات فى كل علم وفن وتفتح أبوابها لكل راغب وتقـدم إمكانياتها دون مقابل •

وشغلت القاهرة فى أول عهـدها الأحياء التى تعرف الآن باسم « الأزهـر ، باب الخلق ، الموسـكى ، وباب الشعرية ، الجمالية ، الغـورية » ثم أقيم حولها سـور كبير جعل فيـه أربـع أبواب هى باب النصر ويقـع فى الشمال ، وباب زويله فى الجنـوب ، وباب البرغه شرقا وباب الفتوح غرباً •

وكان هـذا السـور — الذى بنـاه جوهر الصقلى أيضاً من اللبن ، ضخماً سميكا ، بحيث كان يمكن لفارسين أن يسيرا على قمته جنباً إلى جنب بجواديهما فى سهولة تامه ، وقد حفر حوله خندقا عميقـا بلغ اتساعه ستة أمتار بقصد صد هجمات القرامطة أو أى عدو مهاجم •

ولكن لمـا تهـدم جزء من هـذا السور ، أمر بـدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى بهدمه ، بعـد أن لمس ضعفه وعـدم احتماله ، وأعاد بنـاء السور من جديد سنة ٦٤٥ هـ وانشأ فيه نقطاً للمراقبة وكانت أهم أبوابه باب زويلة وهو المعـروف الآن بباب المتـولى — وباب الفرج ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة — باب الشعريه الآن — وبابا سعادة والبرقيه •

وكانت القصـور الباذخة تتناثر فى قلب القاهرة وفى أنحائها فتجملها وتعمرها وكانت البساتين الممتدة تلحق

ببعض هــذه القصور ، ويروى كيف كان يزرع فيها من الأزهار : الــورد والرياحــين والنرجس والسوســن والبنفسج والياسمين والنــوار والاقحوان والشقيــق والبازلاء ومن أشجار الفاكهة المشمش واللوز والرمان • وكان يتعهدها دائماً أكثر من بستانى يعمل مقراضــه فى أوراقها حتى لا تطول فيشوه منظر الحدائق المتناسقة ، مكان كل ناظر إليها يشعر براحة عميقة ويستمتع برائحة طيبة فى نفس الوقت •

وفوق ذلك كله كان الجامع الأزهر مركز إشعاع علمى ودينى قوى ، يسلط أضواءه على العالم الإسلامى كله فى كل مكان ، فيقصده المسلمون من كل فج يطلبون العلم ويتلمسون المعرفة ، فيفتح لهم ذراعية وتتقــدم له كــل مســاعدة ممكنة دون مقــابل ، ولا يزال جادا فى تأدية رسالته العريقة على أوسع نطاق •

نماذج من القصور العربية

« نقدم فيما يلى نماذج ـ مجرد نماذج ـ لبعض القصور العربية ، تصور مدى ما أنفق عليها من مال ، ومدى ما أدخل عليها من تجميل وأناقة ، حتى أصبحت القصور العربية مثلا يحتذى فى العمارة والزخرفة ، والروعة ، وسنكتفى بعرض صورة وصفية لقصر من الشرق فى بغداد ، ولقصرين من الأندلس فى قرطبة واشبيلية اعتزازا بمجد عربى عريق تألق زمنا طويلا فى ربوع أسبانيا ... » .

قصر الذهب « بغداد » :

قلد العباسيون الفرس فى بناء القصور الضخمة فامتلأت بغداد بعدد كبير منها ، بنى بعضه الخلفاء لهم ولأبنائهم ، وبنى بعضه الآخر الوزراء وكبار رجال الدولة ، إذ تنافس الجميع فى بناء القصور وتزيينها وتأثيثها بأفخم الرياش ، ولكن كان هناك قصر واحد يمثل دائماً الصدارة بينها جميعاً ، هو قصر الذهب الذى أنشأه « أبو جعفر المنصور » فى قلب بغداد عاصمة العباسيين .

وكان هذا القصر ـ أو دار الخلافة كما كان يعرف ـ يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها تحيطه أسوار طويلة تمتد لفراسخ عديدة وتضم بين جنباتها كل ما يمكن أن يتوقعه إنسان فى مدينة لا فى قصر .

فمن بساتين واسعة تضم أندر النباتات والزهور والأشجار إلى الأنهار الجارية التى حفرت خصيصاً لتمد سكان القصر بحاجتهم من الماء دون ما حاجة إلى نقله على ظهور الدواب مما يشوه جمال القصر ، إلى البرك الصناعية المخصصة للزينة أو الاستحمام ، تزينها تماثيل للسباع والطيور ينبثق الماء من أفواهها فى منظر ساحر خلاب ، إلى قباب هائلة وأروقه فسيحة ، أهمها قاعة العرش وكانت تسمى مجلس الأمير وهو المكان الذى كان يستقبل فيه الخليفة — الذى هو أمير المؤمنين فى نفس الوقت — كبار الزوار ومندوبى الملوك والحكام .

وقد خصص للخليفة مقعد مميز يحيطه عدد من المقاعد ، زينت كلها بالأحجار الثمينة وخاصة اللؤلؤ .

وقد كانت الأرض مكسية بالرخام المجزع ، ومفروشة بالأبسطة والديباج بينما حليت السقوف بالصور والرسوم وأقيمت على الأبواب ستائر من المخمل المحلى باللازورد ، وكانت بعض الأبواب من الروعة بحيث اعتبرت ثروة ثمينة فقد اتخذت مساميرها من الذهب والفضة ، وتفنن الصناع والعمال فى نقشها وتزيينها برسوم دقيقة فى ذوق بارع سليم فجاءت ذات طابع عربى أصيل .

وقـــد بلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعا وزود بأجهـــزة تكيف الهواء لتجلب النسيم الرطب فى الجو الحار ، وهى عبارة عن مراوح مبللة بماء معطر مثبتة فى السقف يتدلى منها حبال ، إذا جذبت هب نسيم بارد مـــع رائحة طيبة تعطر الجو •

وقـــد بالغ « المنصور » فى التأنق فى بناء هذا القصر فأنفق عليـــه الأمـــوال الطائلة ، وزوده بأفخم الرياش التى جمعهـــا من شتى أنحاء العـــالم ، حتى جعل منـــه تحفة فنيـــة بديعة •

وكان الأمـــراء وكبـــار الزوار إذا قـــدموا إلى دار الخلافة ، دخلوها راكبين نظرا لضخامتها وامتداد الطرق فيها مسافات طويلة ويظلواراكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذى يريدون ترجلوا ، ودخلوا يسبقهم ويتبعهم الحجاب ورجال القصر والخدم •

ولم ينافس قصر الذهب الا شقيقه « قصر الخلد » الذى بناه المنصور أيضا ، وقد سمى كذلك تشبها بجنة الخلد ، وكان القصران صنوان فى الروعة والفخامة وقد بنى على شاطىء نهر دجله الغربى تجاه باب خراسان • وإلى جانبهما وجـــدت قصور أخرى بنـــاها الرشـــيد والواثق والأمراء والبرامكة وقـــد تبارت كلها فى العظمة والأناقـــة بعـــد أن جملت بالحـــدائق الغنـــاء وزودت بالقنوات المعطاة لنقل المـــاء إليهـــا •

قصر الزهراء « قرطبة بالأندلس » :

على بعد ثلاثة أميال من مدينة قرطبة ، التى اشتهرت بقصورها الفريدة ومبانيها الضخمة وبساتينها النضيرة ، وإلى الشمال الغربى منها قرر « عبد الرحمن الناصر » أن يقيم قصراً لم يبن مثله من قبل ، تتحدث بعظمته الأجيال المعاصرة واللاحقة ، وأن يطلق عليه اسم جارية له اسمها الزهراء أرادت أن تخلد اسمها ببناء هذا القصر ، فحقق لها رغبتها ، وكان إن أعلن بدء ميلاد قصر الزهراء ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) .

ولكن هذا القصر ، ما لبث أن عمر المنطقة كلها ، وتعددت المبانى الفخمة حوله ، حتى أصبح مدينة كاملة أنيقة تحمل اسم « الزهراء » ، ويمكن أن نعتبره أن شئنا ضاحية من ضواحى قرطبة إذ كنا نقيس الأمور بمقاييس الوقت الحاضر ، أو مدينة قائمة بذاتها كما كانت تحلم الزهراء ، وكما أراد لها عبد الرحمن الناصر .

وقد بنيت هذه المدينة على سفح جبل ، وشملت ثلاثة أحياء متدرجة فى البناء على هذا السفح ، فكانت فريدة فى طرازها وبنائها وشكلها ، استخدمت فيها أعمدة رخامية مختلفة الأحجام منها الأبيض والوردى والمجزع بلغت ٤٣١٢ عموداً استوردت من قرطاجنه وتونس وسوريا والقسطنطينية .

وقــد استغرق بنــاء هــذه المدينة أربعين عاماً وكان يعمل فى بنائها عشرة آلاف عامل يستخدمون ١٥٠٠ دابة كل يوم ، وقــد أنفق عليها من الأموال ما قدره البعض بما يوازى ثلث خراج الدولة كلها فى العام •

أما قصر الزهراء نفسه الذى بدأ عبد الرحمن الناصر بناءه ولم يستطع إتمامه ، فقــد قام ابنــه الحكم بهذه المهمة وتفنن فى تجميله وتزيينــه ، فبلغ حــد الروعة ، حتى غــدا أروع بلاط فى أوربا كلهــا ، يقصده السفراء من أباطرة وملوك الدولة البيزنطية وألمــانيا وإيطاليــا للتمتــع بمشاهدته ، ومحاولة اقتبــاس شىء أو فــكرة يستوحونها منــه وينقلونها إلى بلادهم •

وقــد كسيت ردهاته بالرخام ، وغطيت حواجز هذه الردهات بالمــرمر وزخرفت بأفاريز ذات ألــوان جميلة جذابة • أما سقفه ، فقــد زين بنقوش ذهبية لازوردية متشابكة •

كمــا كسيت حوائط القصر بالرخام السميك الخالص والمذهب • وكان للقصر ثمانية أبواب إذا دخلت الشمس منها أرسلت شعاعها فى صــدر المجلس فتحــدث أنوارا تأخذ بالألباب بسبب انعكاسها على الأحجار الثمينة التى تزين كل ركن فى القصر • أما المجلس نفســه فقــد زين بتماثيل من الذهب المرصــع اتخذت أشــكال الأســود والغــزلان والتماســيح والثعــابين والعقبان والحمام والديكة والدجاج ، وكانت كلها تحيط بركة مائية بديعــة

الصنع ، وتنفث المـاء من أفواههـا إلى قلب البركة فى حركة دائبـة لا تنتهى ، فكان منظراً فريدا يأخذ بمجامع القلوب •

وكانت قبـة الخليفة تقوم على أعمدة رخامية بيضاء ذات تيجان مذهبة وتشرف على الحدائق الواسعة ذات الأشجار المثمرة والرياحين والزهـور والتى تتخذ منهـا الطيور الأنيفة الجميلة مسرحاً لها ، وإلى جانبهـا بحيرة للأسماك النادرة التى كان يقدم لهـا يوميا ٨٠٠ رغيف من الخبز لإطعامها ، وعلى مقربة من قبـة الخليفة كان يقبع حوض بـديع الصنـع من الرخام السماقى مملوء بالزئبق فى شكل بديع ساحر خاصة إذا سلطت عليـه أشعة الشمس أو انعكس عليـه ضـوء القمر ، فيأخـذ فى الحالين بالألباب •

وقـد جنـد لحراسـة هـذا القصر عـدد كبير من المماليك المجلوبين من مختلف أنحاء أوربا وخاصـة من الممالك الصقالبة الذين كانوا يشترون إذ ذاك بالمـال ، حتى عرف هـذا الحرس باسم الحرس الصقلبى •

وقـد بنى النـاصر مسجـداً يعـد من آيات الفن الإسلامى ولم يبخـل عليـه بمال ، وأقام فى وسطـه نافورة يجرى فيهـا المـاء تحيطها الأعمـدة الرخاميـة الوردية البـديعة الشـكل ، كما أراد أن يؤمن المـاء للمصلين فأمر بحفـر قنـاة عبر الجبل حتى لا يحرم المصلون من المـاء إذا ما انخفض ماء نهر الوادى الكبير

وبلغت طـــول القناة ثمانـــين كيلو مترا فكانت فريدة فى طولها وصنعها وما زالت آثارها باقية حتى الآن •

قصر الحمراء « لؤلؤة الأندلس الخالدة » غرناطة :

بناه بنو الأحمر الذين استقلوا بغرناطة ٦٣٠ هـ ويعد هذا القصر قمة روائع فن العمارة العربى فى الأندلس ، وما يزال قائما حتى الآن رغم ما تعـــرض له من تخريب وتدمير على يـــد الأسبان بعـــد خروج العـــرب • زاره فـــكتور هوجو واذهلة ما رأى من عظمة وفنـــون ماثلة فى كل أجزاء القصر فخلد زيارته هـــذه بنشيـــد يقـــول فيـــه : « أيتها الحمراء •• أيتها الحمراء •• أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء لك الخيال • فجعلت منـــك آية للانسجام •• أيتهـــا القلعة ذات الشرفات المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان •• حينما تنعكس أشـــعة الشمس الفضية على جـــدارنك تأخذ بمجامع القلوب • وحتى فى الليل تسحرين الألباب •• أيتها الحمراء •• أيتها الحمراء •• » •

ونترك الحديث عن هذا القصر للعالم الفرنسى المحقق « جوستاف لوبون » الذى يقول . « زرت هـــذا القصر ، ووجدت أن كل ما فيـــه عجيب ، ويمكن أن نقـــول بحق انه لا يوجد فى أوربا كلها قصر آخر يضارعه » • وأروع ما فيه قاعة الأسود التى قال جيرول دو برانجه عنها : (يعجز الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمر من قاعة البركه ويدخل قاعة الأسود ، فيرى فيهـــا الاروقه التى

تزينها الأقواس المنــوعة المزخرفة بالنقوش والزخارف المتدلية ، وتقــع عينه على غابة من الأعمدة ، التى وضع بعضها منفــرداً وبعضها مزدوجا ، وبعضها مجتمعاً على شكل بالغ حد الإبداع ، يبصر من خلالها التماع ميــاه فسقية الأسود الرائعه ، ولم أصدق أن هــذه الزخارف من الجص إلا بعد أن حللها لى أحــد أعضــاء المجمع العلمى مسيو فريدل مما جعلنا نعترف بإتقــان صــنع ذلك الجص الذى قاوم تقلبات الجو خمسمائة عام دون أن يفسد ، ولا أعتقد أن مهندسا أوروبيا يمكن أن يعاهد على صنع نوع من الجص يستطيع أن يعمر مثــل هــذا الزمن البعيد بلا عطب) •

والحــق أن هــذا القصر الذى أقيم فى غرناطة على منحدر جبل شليد ويشرف على مروج واسعة ، يعــد آية من آيات فن البناء العربى • ويعــد من أجمل قصــور العالم قاطبة ، ويتميز بقاعتــه الرائعــة ، قاعة الريحان وهى قاعة فسيحة يبلغ طولهــا ٣٤ متراً وعرضها عشرين متراً ، تتركز روعتها فى حــوض المــاء المستطيل الذى يتوسطها والذى تقوم حوله شجيرات الريحان برائحتها الزكية وتتميز بعقودها العربية التى تستند إلى أعمــدة مرمرية كركائز للمقاصير ، وما زالت قائمة ومحتفظة بكل مافيهــا من جمال وبهجــة •

« بهو السباع بقصر الحمراء فى غرناطة ، تتجلى فيه روعة الفن العربى الأصيـل »

وقد زود القصر بالحمامات الملكية التى تشغل قاعة كبيرة مغطاة بقبة كبيرة ذات أقمار ونجوم ، اقيمت على عقود رشيقة تحيط بها شرفة أعدت لجوقه موسيقية من الحسان لتشنف آذان المستحم بعد خروجه من الحمام ، فيستلقى بعد ارتداء ملابسه لينال قسطا من الراحة مع أنغام الموسيقى الهادئة من عزف سرب الموسيقيات البارعات ، ولم تخل هذه الحمامات من الزخارف والنقوش وأبيات الشعر المناسب للمقام .

وكان القصر فى الجملة تحفة رائعة أذهلت الأسبان لما تسلموا تقاليد الحكم بعد خروج العرب .

فماذا كان مصيره ... ؟

يؤسفنا أن نجيب على هذا التساؤل ، والألم يعصر قلوبنا ، أن الأسبان أتوا فى هذا القصر بما لا يخطر على بال من تخريب دافعه الحقد الأعمى والتعصب الأحمق فقد طمسوا النقوش الجميلة التى تكسو جدران القصر وغطوها بطبقة كثيفة من الكلس ، ونزعوا ألواح الميناء التى كانت تزين ردهات القصر ، وباعوا بعض أبوابه وأحرقوا أغلبها وبعد أن أشبعوا نزعتهم الإنتقامية العمياء ، اتخذوا من القصر سجنا للمجرمين ومن جزء آخر منه مخازن لأدوات الزراعة .

ومرت الأعوام ، وبدأ الأسبان يتنبهون إلى بشاعة الجريمة التى ارتكبوها وإلى فداحة ما أقدموا عليه ،

بعـــد أن اتضح لهــم أنهــم يجنون بذلك أيضـــاً على مورد مالى يمكن أن يدر عليهم الذهب لو استغلوا هــذا القصر الذى يعــد إحدى عجائب الدنيـــا فى الأغراض السياحية ، فعملوا على إزالة التـــكليس الـــذى يخفى النقوش الرائعة ، ورمموا الأجزاء التي هدموها ونجحوا فى جـــذب مئـــات الآلاف من الســـياح إليـــه كل عام ، ليعيشوا فى رحاب العـــرب وفنونهـــم المبـــدعة الخارقة بعض الوقت يستلهمـــون فيـــه ذكـــرى شعب مـــكافح ويستمتعون بروعة فن أصيل •

« بعض الأعمـــدة الرائعة »
« التى نجت من التخريب فى قصر الحمراء »

الموسيقى والغناء

« رغم ما قرره كثير من الفقهاء من كراهية الاستماع الى الموسيقى ، الا أن العرب أولوا هذا اللون من الفنون الجميلة عنايتهم واهتمامهم ، وأقبلوا عليها وخاصة فى عصور التحرر بعد أن اتسعت رقعة الدولة وساد الترف ، وكان من الطبيعى أن تقترن الموسيقى بالغناء فى عصرهما الذهبى فى العالم الاسلامى مشرقه ومغربه ... » .

عرف العرب الحداء منذ أقدم العصور طرداً للوحشة فى الطريق واستحثاثا للإبل فى السير . والحداء لون بدائى من ألوان الغناء العربى ، كانوا يرددون معه الرجز الذى يؤدى منغماً فيبدد شعور المسافر بالوحدة والملل ، فلما جاء الإسلام واختلط العرب بغيرهم من أبناء الأمم المجاورة ، استمعوا للموسيقى والغناء فى فى فارس بوجه خاص حيث كان البلاط يولى هذا النون من الفن عناية ملحوظة .

ولكن طوال عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين لم يعرف أن هذا الفن شغل بال أحدهم ، لاهتمامهم بما هو أجدى وأهم ، ونعنى به الفتوحات ونشر الدين وتوطيد نفوذ المسلمين وتذليل العقبات والقيام بما يتطلبه الأمر من الاصطلاحات . ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى أن الرسول وكبار الصحابة كانوا يطربون لصوت بلال ، وكان صوته ندياً له رخامة خاصة يحرص

المصلون على الاستمتاع بها وتذوقها وهو يؤذن للصلاة .

وجاء العصر الأموى ، وبدأ الغناء والموسيقى يزدهران كفنين حديثى عهد بالدولة الإسلامية ، وبدأ الخلفاء يعقدون لهما الجلسات الخاصة وينفقون بسخاء على المغنين والموسيقيين وكان معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد من الخلفاء الأمويين الذين انتعشت الموسيقى فى عهدهم .

وحل بمجىء العباسيين العصر الذهبى للموسيقى والغناء فى الإسلام ، فقد أولى الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة والوزراء « وخاصة آل برمك وآل الربيع » عناية بالغة بهما ، فكانت مجالس الطرب والموسيقى التى يقيمها الخلفاء وغيرهم لها شهرتها العريضة التى امتدت من بغداد إلى بقية أنحاء الدولة الإسلامية ، فتعددت الحفلات الموسيقية الغنائيه ، وانغمس العباسيون فى الطرب ، بعد أن تدفقت عليهم الثروات من كل صوب ، وعقدوا المجالس لهذه الحفلات فى قصورهم فى أمسيات حالمة أو صاخبة تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل فى كثير من الأحيان ، وتتسم بطابع من الروعة والبهاء ، والفخامة لا نظير له ، واستطاب الخلفاء هذه المتعة التى كانت تتفق وعيشتهم انباذخة المترفة وإسرافهم الملحوظ . وتشبهوا فى هذا كله بالفرس ، فكانوا يتصدرون المجالس ، يحف بهم

عشرات من صفــوة رجال الدولة والحراس ، ثم يعطى الخليفة إشارة البدء فتنفرج ستارة من المخمل أو الحرير عن سرب من الجوارى يعملن إلى جانب المغنى ويضربن الدفوف ، ويتبسط الخليفــة مــع المغنى أو المغنيــين ويشجعهم ويجزل لهــم العطاء حتى قيل أنه كان يعطى أحيانا ألف ألف درهم .

وكان من أشهر المغنين إبراهيم الموصلى وإنه اسحق .

وقــد نبغ « إبراهيم الموصلى » فى فن الغنــاء وضرب فيــه بسهم وافــر ، ولقن أصول هــذا الفن لعــدد من الجوارى تلبيــة لطلب الخلفاء ، وكن يتقــاضى مرتبــاً شهرياً ثابتاً قــدره عشرة آلاف درهم عــدا الهــدايا والهبات . وقــد تميز بسرعته فى أداء الألحان التى كانت طيعة له ومواتية دائمــاً وكان يقــول : « إذا أردت أن أبدع لحنا ، فلا بــد أولا أن أتخلص من الهم وأطــرده من فــكرى ، وأتمثل الطرب فتسارع إلى الألحان التى أريدها » .

أما ابنــه « اســحق » فــكان كأبيه موسيقيا بارعا تفرغ لوضــع الألحان وآدائهــا ، وكان إلى جانب ذلك أديبا مطبوعا فوضع كتاباً فى الغناء ضمنه أهم الأنغام والطرائف الفنيــة التى صادفتــه .

وقــد تميز اسحق بطابعه الخاص فى الغناء فاستحوذ على إعجاب الخلفاء ، وعطاياهم الثمينــة ومنهــا هبــة قــدرها ٤٠٫٠٠٠ ديناراً أمر له بهــا الأمــين ذات ليلة

بعـــد أن استمع إليه وأعجب به ، والحق أن الأمين كان دائم الإعجاب به ، وكثيراً ما وصفه بقوله « أنه أصدق وأعف وأكثر دينا وأمانة من غيره » .

ومن المغنـــين الآخـــرين الذين برعوا فى هـــذا الفن إسماعيل أبو القاسم ومنصور زلزل ، وبرصوم ، ومسكين المدنى المعـــروف بأبى صـــدقة كما بـــرع فى الموسيقى الكندى والفارابى الذى أصطنع آلة موسيقية من عيدان يركبها ويضرب عليها فتختلف أنغامها باختلاف تركيبها ، ويروى أنه حضر مجلسا لسيف الدولة فغنى فيـــه حتى أضحك الحاضرين ثـــم أعاد تركيب العيـــدان فى آلتـــه الموسيقية وغنى فبكوا جميعاً وأعاد تركيبها للمرة الثالثة وغنى فناموا جميعا فتركهم وانصرف ... ؟ !

ورغم براعة المسلمين فى الموسيقى فإنهم لم يعرفوا النوتة الموسيقية حتى يسجلوا عليها تراثهم الموسيقى مما فذهب كله أو جله ولم تبـــق إلا بعض رمـــوز غامضة ساقتها إلينا بعض الـــكتب التى اهتمت بهـــذا الفن وفى مقدمتها كتاب الأغانى .

ومن الآلات الموســـيقية التى عرفهـــا العـــرب الدف والمزمار والطنبور والعـــود والرباب والصنج والنـــاى والقثار والأرغن ، هـــذا إلى جانب القـــانون الـــذى اخترعه الفـــارابى .

ويروى أن الخليفـــة الواثـــق كان يهـــوى الموسيقى ويحدقها وأنه نجح فى وضع أكثر من مائة لحن ونغمة

على العـود الذى برع فى العزف عليـه .

وفى الأنـدلس لـم يـكن اهتمام خلفـاء بنى أمية بالموسيقى والغناء أقل من اهتمامهـم بالفنـون الأخرى أو من اهتمام زملائهم خلفاء بغداد بها ، فقـد شجعوا المغنيين والموسيقيين ، واسـتقدموهم من كـل مـكان وأجزلوا لهم العطـاء بسخـاء ، وكان أشهر المغنيين فى الأندلس على الاطلاق أبو الحسن على بن رافـع الملقب بـ (زريـاب) وقـد وفـد على الأنـدلس فى عهـد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦/٢٣٨ هـ) ، وقـد جاء زرياب إلى قرطبـة بعـد أن تلقى الفن على يـد أستاذه اسـحق بن ابراهيم الموصلى وبذه فيـه ، وكان زرياب مولى المهدى العباسى ، وقد لزم أستاذه اسحق فى بغـداد فترة تعلم فيهـا الغناء والعزف على العـود وبرع فيهما حتى فاق أقـرانه ، وحدث مرة أن غنى فى حضرة الرشيد فاستحوذ على إعجابه وكاد يطير طـربا مما أوغر صـدر أستاذه اسحق عليه فخشى زرياب أن يحقد عليه اسحق ويقضى عليه ، وآثر السلامة فهرب قاصداً الأندلس .

وكان الخليفة عبد الرحمن مولعاً بالغناء ، فرحب بـه وقربه إليـه وأغدق عليه من العطايا والهبات الـكثير ، وأنزله فى أحسن الدور وحمل إليـه كل ما يحتاجه وكتب له فى كل شهر مائتى دينار من جيبه وثلاثة آلاف دينـار

من بيت المال كل عام ، وأقطعه عددا من الدور والبساتين والضياع .

وساعد ذلك كله زرياب على التفرغ لفنه ، وتعهد جوارى القصر بالتعليم ، وبفضله برعن فى الغناء والعزف على العود ، وكان إلى جانب براعته فى تنسيق الألحان وإبداعها ، فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث يحفظ عشرة آلاف مقطوعة بألحانها ، وساعده على ذلك تعلقه بالشعر والأدب .

ومن المغنين الذين اشتهروا فى الأندلس أيضاً عنون وزرقون وكانا من أوائل من أدخل الغناء والموسيقى العربية إلى الأندلس فى عهد الحكم بن هشام (١٨٠/٢٠٦ هـ) .

وهكذا تبارى العلم الإسلامى فى المدن الهامة وخاصة فى بغداد شرقاً وقرطبة غرباً فى الأخذ بيد هذين الفنين الجميلين ، حتى كان عهد هاتين العاصمتين بحق العصر الذهبى للغناء والموسيقى العربية .

المراجع الهامة

(أ) المراجع العربية :

١ — ابن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
٢ — ياقوت الحموى : معجم البلدان
٣ — اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى
٤ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى
٥ — عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الغربية

(ب) المراجع المترجمة :

٦ — جوستاف لوبون : حضارة العرب : ترجمة عادل زعيتر
٧ — برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ترجمة نبيه فارس
٨ — ف. بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزه طاهر
٩ — آدم متز : عصر النهضة فى الإسلام

(ج) المراجع الأفرنجية :

10.—Thomas Arnold ; The Preaching of Islam.
11.—Stanley Lane-Pole ; History of Egypt in the Middle Ages.
12.—H. B. Philby ; The Background of Islam.
13.—L. B. Sedillot ; Histoire Generale des Arabes

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
هذا الكتاب	٣
مقدمة	٥
ألوان من فنون العرب الصناعية	٨
فن العمارة الإسلامية	١٣
المساجد فى الإسلام	٢١
المسجد النبوى الشريف	٢٥
مسجد عمرو بن العاص	٢٩
جامع عمر بالقدس	٢٩
المسجد الأموى بدمشق	٣١
مسجد قرطبة بالأندلس	٣٣
الجامع الأزهر بالقاهرة	٣٦
المدن والقصور العربية	٣٩
البصرة	٤٢
الكوفة	٤٤
الفسطاط	٤٦
دمشق	٤٨
القيروان	٥٠

الموضوع	صفحة

– قرطبـــة	٥٢
بغـــداد	٥٤
القـــاهرة	٥٨
قصر الذهب ببغداد	٦٢
قصر الزهراء بقرطبة	٦٥
قصر الحمراء بغرناطة	٦٨
الموسيقى والغنـــاء	٧٤
المراجع الهـــامة	٨٠

للمــؤلف

١ ــ من المحيط إلى الخليج « دار نهضة مصر »
٢ ــ تاريخ العرب الحديث
« مؤسسة المطبوعات ، والمطبعة الأميرية »
٣ ــ تاريخ الوطن العربى فى العصور القديمة
« دار المعارف ، والمطبعة الأميرية »
٤ ــ تاريخ ج٠م٠ع والوطن العربى
« مؤسسة المطبوعات ، والمطبعة الأميرية »
٥ ــ العــلوم عند العرب « دار نهضة مصر »
٦ ــ الفن والعمارة عند العرب « « «
٧ ــ التجارة والاقتصاد عند العرب « « «
٨ ــ الحــكم والإدارة عند العرب « « «
٩ ــ أثر العرب فى الحضارة الأوربية « «
١٠ــ أضواء على حضارتنا العربية
« المؤسسة العربية الحديثة »
١١ــ « « قوميتنا العربية
« المؤسسة العربية الحديثة »
١٢ــ « « الحــكم المحلى
« المؤسسة العربية الحديثة »
١٣ــ « « قناة السويس
« المؤسسة العربية الحديثة »

١٤ـ أضواء على الجامعة العربية

« المؤسسة العربية الحديثة »

١٥ـ « « الأمم المتحدة

« المؤسسة العربية الحديثة »

١٦ـ الوطن العربى والإسلامى « تحت الطبع »

١٧ـ ملامح التاريخ الإسلامى « تحت الطبع »